أطراف يابسة

مجموعة قصصيّة

أطراف يابسة / مجموعة قصصيّة

تأليف: **مظهر عاصف**

الطبعة الأولى: عمّان، 2021

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة.

جميع الحقوق محفوظة ©

دار الفينيق للنشر والتوزيع
عمان، المملكة الأردنية الهاشمية
هاتف: 487 55 16 78 - 084 10 94 78 962+
Email: phoenix.pub@hotmail.com
www.phoenix-pub.com

وزارة الثقافة
طُبع بدعم من وزارة الثقافة
2 0 2 1

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢١/٥/٢٦٣٩)

٨١٣,٩

عودة، «مظهر عاصف» أحمد

أطراف يابسة/ «مظهر عاصف» أحمد عودة.- عمّان: دار الفينيق للنشر والتوزيع، ٢٠٢١

(   ) ص.

ر.إ. : ٢٠٢١/٥/٢٦٣٩.

الواصفات : /القصص العربية//القصص القصيرة//الأدب العربي//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونيةعن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

رقم الترميز الدولي **ISBN 978-9923-45-015-4**

مظهر عاصف

أطراف يابسة

مجموعة قصصيّة

الأسود

لكَ أن تتخيلَ مفتاحًا بيدِ عجوزٍ قبل أذان الفجر بنصفِ ساعة، ولكَ أن تتخيلَ لحيته البيضاءَ، وإزارَه البنيَّ، وقدميهِ الرّزينتين أثناءَ تجاوزهِ الحَذِر عن الوحلِ والحفر المائيّة؛ بنعلين أسودين مميّزين قاصدًا مسجدَ حاراتنا الفقيرة. لكَ أن تتخيل شفتينِ متمتمتين بحوقلة وتعذبلٍ وتسبيح بشكلٍ تلقائي، ولي أن أصِف.

سر معي، بعد قليلٍ سترى نارًا تغتصبُ الحطبَ في (تنكةٍ) صفيح يجلس أمامها حارسٌ ليلي يرتدي معطفًا أسودَ لا يناسبُ نضارةَ وجهٍ عشرينيّ لِمَا حاقَ به من القِدَم؛ معطفًا لا تسمح الرّقعُ لاهترائهِ بالزّحفِ على بقاياه عنوةً مهما حاولت.

حارسٌ تقبعُ خلفه الواجهات الزّجاجية الباهظة لشركةٍ مرموقة، بينما يبدو الباب الحديديّ الكبير كبوابةِ سجنٍ يحاصره طوعًا خارجَ أسواره، ولك أن تتخيّلَ يديهِ وشكلَ وجههِ الحليق جرَّاء لهيب النّار وانعكاسهِ على ملامحه، ولي أن أصف.

كان هذا على يمين الطّريق، أمَّا الذي كان على يساره فشابّ يحملُ كيسَ طحينٍ شبهَ فارغ، مُفتِّشا في متجر النّفايات عن بضاعته المجّانيّة بنشاطٍ غريب، بدا كأنّه يعرفُ ما احتوته أكياس القمامة السّوداء المغلقة قبل فتحها؛ فتراه يفتح هذا ويهملُ ذاك بدقّة متناهية، وبعد أن يركل علبةً فارغة لسببٍ أجهله راميًا الكيس على ظهره مجدّدًا ينتقلُ سريعًا لمتجرٍ آخرَ بقربه. لك أن تتخيّل خفَّته وحِرْفِيَّتَه العمليّةَ؛

ولي أن أصف.

لن نسيرَ طويلًا لنشاهدَ تلك الشّابةَ بملابسها المحتشمة الأنيقة، ولكَ أن تتخيل ما أَرَدتَ لأنّني لن أصفَ ما لم أحط به علمًا، فقد وقَفت في مكانٍ معتم مزويّ قليلًا عن الأنظار ضمن طقسٍ باردٍ، متأمّلةً وجوهنا بنظرةٍ انبثقت عن (عينين سوداوين في حجريهما تتوالدُ الأبعادُ من أبعادِ) باعثةً حالَ رؤيتها ألفَ سؤال فضوليّ، وألفَ شكٍّ لا تقطعه طرفةُ العين باليقين، لك أن تتخيّل فتاةً وحيدةً قبيل الفجر بقليل وفي جو ماطر تقفُ على قارعة الطّريق، ولي أن أصف.

ستجبرنا الآن دوريّةُ الشّرطة على الوقوف وتقديم وثائقنا الشّخصيّة وفق الإجراءات الأمنيّة، ولك أن تتخيّل لطافةَ رجل الأمن الأوّل حتّى بعد اصطدامي به فورَ نزولي من المركبة، متسببًا بوقوعِ هاتفه الأسود من يده وأسلوبه الرّاقي المهذّب رغم ما حدث، أو أن تتخيل غطرسةَ الرّجل الثّاني دون مبرّر، وأسلوبَه الاستفزازيّ المبطّن أثناء تبادلي حوارا إجباريّا معه؛ قبلَ إفساحه المجال لنا بمواصلة طريقنا، ولك أن تتخيّلَ كيفَ راح الأوّل يجمع أجزاء الهاتف متأمّلًا نجاته، وامتعاض الثّاني لسببٍ ما زلت أجهلهُ، ولي أن أصف.

لك أن تتخيّل لونَ النّعلين، والمعطف، والأكياس، وعينيّ الفتاة، والهاتف، ولي أن أصفَ ألوانَ هذه الأشياءِ بلونٍ جديد، متجاهلًا ما

اتفقت عليه العرب ضمن قولِها: (إن المُعرَّف لا يُعرَّف، والمُشبَّه لا يشبّه، وإنَّ من الفاضحات توضيح الواضحات). فالأسود في جوٍ ماطرٍ، تنشُرُ رياحُه القاسية بأسنانها أبدانَ البسطاء تحت عَتمةٍ هجرَها القمرُ فجرًا يبدو كلونٍ آخر، والأسود الذي لم يكن أسودَ عند ولادة خيوطِه وجسيماته ثم صبغتهُ النوائبُ بريشاتِ الليل والنهارِ يبدو كلونٍ آخر، والأسودُ الذي ينتجُ عن دمجِ اصفرارِ شقاءٍ واحمرارِ وجنات وبياضِ قلبٍ يبدو كلونٍ آخر، ولَك أن تتخيّلَ هذا اللون على حقيقته ولي أن أصف.

أغمض عينيك الآن، ولنتخيّل ما شاهدَه غيرُنا في تلك الليلة؛ فالعجوزُ بعد مغادرة المصلين أغلق أبواب المسجدِ ولم يتردد أن يقدِّمَ نعليه لمصلٍّ سُرقَ حذاؤه، ثم قفلَ راجعًا لمنزله غيرَ عابئٍ بالوحلِ والماء، مبتسمًا كطفلٍ تجرّأ أن يلعبَ بالوحلِ حافيًا ثائرًا على تحذيرات أمِّه المتكرّرة، ورغم فرحةِ الشرطيِّ بموقف العجوز وغضبهِ من سارق حذائهِ إلَّا أنّه شتمَ من كان سببًا بهلاكِ هاتفه فقط، أمَّا الحارس فقد اقتسمَ مع قطّةٍ أصرَّت أن تحتمي بمعطفه علبة (سردين) متعجبًا بابتسامةٍ دافئةٍ مِن هذا الزّائر المفاجئ.

انتظر، لا تفتح عينيك؛ فقد أوقفت الدّوريةُ صاحبَ الكيس، وعند النّظر سريعًا لمحتواه وبعد أن أطرق رجل الأمن الثاني رأسه مليًّا أخرجَ من جيبه دينارًا ومنحهُ صاحبنا، وبعد ابتسامةٍ عريضة، وبعدَ

أن قلَّب الدّينارَ بيديه وقبَّله عدّة مرّاتٍ؛ مدَّ صاحبُنا يدَّه داخلَ الكيس دون النّظر إليه مخرجًا منه محفظةَ نقودٍ نسائيّة احتوت على مبلغٍ من المالِ، وبطاقةِ صرَّافٍ، ووثائق شخصيّة.

لعلّكَ ستعتقد الآن أنّ المحفظة تعود للفتاة، وأنّ وقوفها هناك كان لهذا السّبب!!

لك أن تتخيّلَ ما شئت... ولي فقط أن أصف.

الحقيقة

صاحَت بي: (لستَ رومانسيًّا أبدًا).

(لست رومانسيًّا) وظلّت تدور في رأسي هذه الجملة كناموسة صيف حول وجهٍ متعرِّق في جوّ حار.

كرَّرَت بهدوء الجملة ذاتها: نعم، لست رومانسيًّا... غضبتُ وأقفلت الخطّ، وتوجهتُ إلى زميلتي في العمل. سألتها: هل أنا رومانسيّ. قالت لي فورًا: بالطّبعِ لا.

هذا ما قاله أيضًا مديري، وبائع البطّيخ، وجارتي عطاف، وخالتي أمّ يوسف.

مؤلمةٌ هذه الحقيقة، ومؤلمٌ أن تؤكّد لي والدتي أيضًا هذا الشّيء.

اشتريتُ حينها كتابا بعنوان: (تعلَّم الرّومانسية بعشرةِ أيّام دون معلم)، وخلال الأيّام العشرة لم يفارقني الكتاب، بل بدأت أتناول الطّرح أمام أصدقائي وصديقاتي، وأشرح لهم الخطوط العريضة لهذا المفهوم، كي أتشبَّع أنا داخليًا بما أردده على مسامعهم.

فعلتُ ما طلبَ منّي الكاتب، فقد أوقفتُ سيّارتي تحت نافذةِ معشوقتي، وأدرتُ موسيقا هادئة حاملًا باقةَ وردٍ كبيرة، شاخصًا ببصري الى النّافذة التي لم تُفتح، متخيّلا أن سبب اهتزازها هو شخير معشوقتي لا محالة، وهربت عند أوّلِ طلقةٍ من مسدّس ذلك الجار المتطفّل الذي أزعجه جلوسي على سور منزله.

لم يفلح الأمر لكنّها اعترفت بعد عدّة أيامٍ أنّ تغيّرًا جذريًّا طرأ عليَّ؛

سيّما بعد أن اقتحمتُ قاعة محاضرتها في الجامعة _كما نصَّ الكتاب_ وقدَّمتُ لها وردةً حمراء بطريقةٍ سينمائيّة، جعلت زميلاتها يصفّقن لي بحرارة مع صراخ: (أووووه)... بينما وضَعَت يدها على فمها بخجل كاذب تحت عينين جاحظتين من الدّهشة المصطنعة.

راقصتها بعد ذلك على ألحان أضواء السّيارات، وحملتها كما تحمل السّماء النّجوم لتضحك، وعزفتُ على يديها كالبيانو؛ أي كما فعلَ (كاظم السّاهر) في (كليب) ما تمامًا، ثم غنيّت لها بصوتي الرّديء أغنية (التايتينك).

أخيرًا اعترفت لي أنّني رومانسيّ بفضل ذلك الكتاب المستورد، وأخيرًا عرفتُ أنّ المرأة بحاجةٍ لأشياء بسيطة ملموسةٍ كي تبرهن على حبّك وعشقك لها، كما أنني عرفت أيضًا أنّها طُردت من الجامعة بسببي، وأنّني مطلوب للشّرطة مشتبهًا بي بقضيّة سرقة بيت جارها الغاضب، مع تهديدات والدها لي بالقتل إن وقعت عيناه علي، ناهيك عن تهديدات والدتي بغضبها (دنيا وآخرة) عليّ إن تزوجت بفتاةٍ سطحيّةٍ ووقحةٍ مثلها.

لا يهمني حقيقة كلّ هذا؛ فالمهم أنّني أصبحتُ رومانسيًا أخيرًا.

المُشَوَّه

المنغّصاتُ البشريّة أسلوبٌ ينتهجهُ الأغبياء وقتَ راحتكَ وخلوّك مع نفسك، فقد كنتُ على وشكِ التهام طبقي المفضّل على الغداء، متكئًا على كبدها، متوسّدًا معدتها على ما أظن؛ قبل أن يتظاهرَ الطّبيب بالحزنِ مخبرًا والديَّ أن طفلهما مشوَّهٌ كليًّا.

ألا لعنةٌ خماسيةُ الأبعاد على ذلك الشّخص الذي اخترعَ هذا الجهاز ليتطفَّل عليَّ؛ ملتقطًا لي الصور عاريا، وفي أوضاع حرجة، سامحًا لهذا الطبيب المتوحش أن يحشرَ أنفه فيما لا يعنيه بكلِّ وقاحةٍ، ويتدخّلَ بين البحر والبحّار.

ذهبت تولول نادبةً حظّها، بينما ذهب الغراب ينعقُ بالنّصائح التي تدور حول الإجهاض والخلاصِ منّي، بل وقتلي أعزلًا.

لولا الحياء حينها لقذفتُ نفسي خارجًا ودققتُ عنقّ هذا السّفَّاح، لكنّني تعذبلت وحوقلت بعد أن رميت وجبة الغداء من يدي موليًا له عجيزتي ليراها؛ بدل وجهي الذي اعترض عليه وكأنّني من خلقت نفسي، وكأنّ الذي تبارك كأحسن الخالقين _والعياذ به_ ظلمني، لذا فقد وجبَ عليَّ الاستهتار به مع قناعتي الشّخصيّة أن احترام بعض الأشخاص يؤدّي لنتائج سلبيّة، فكنتُ كلّما أراد أن يتطفَّل علي بصورة من هنا أو هنا أوليته عجيزتي، ليشتمني في سرِّه ألف مرّة، مخفيا وراء ابتسامته الغضب والحنق الشّديدين، ضاربًا على الجهاز أحيانًا لينفّسَ عن الحنقِ الذي سبّبته له.

استمتعتُ بهذه اللعبة حقيقةً، خاصّةً عندما كنت أشفق عليه في بعض الأحيان وأمنح عدسته طرف وجهي، فيلهثُ لأخذ صورةٍ رديئة ويرفعها فرحًا كبطل قاد بلاده للفوزِ بكأس العالم.

كثيرًا ما تقصَّد رفعَ صوته لإيقاظي شارحًا لوالدتي خطر الولادة على حياتها، وكأنَّ هذا الغبيّ ظنَّ بأنّه أرحم بوالدتي منّي، أو اعتقدَ بأنّه بواسطةِ هذا الكلام سيخيفني، ولم يكُ يعلم أنني كنت _وأقسمُ على هذا_ سأسحق آلته الخبيثة وأعيدها له (خردة) إن تجرَّأ وفعلَ ما يتشوّق للقيام به، مع اعترافي أنّ منغّصاته هذه جعلتني أتوه بين كبد ومعدة وبنكرياس أميّ، فلا زلتُ حتى اللحظة لا أتذكّر على الخريطة مواقع هذه الأعضاء، أضافةَ لحقيقة بسيطة وهي: أنني آنذاك لم أكن مهتمًا بعالمي الضّيّق مِن حولي طالما إنه سيقذفني_شئتُ أم أبيت _ من بابه حتمًا مانحًا للبشريّة مخلوقًا آخر... مخلوقًا بوجهٍ مشوه.

بكلِّ فخرٍ أقولها: أنا المشوّه... نعم أنا ذلك الشّاب الذي يتحاشى النّظر إليه جميع النّاس خجلًا وخوفًا وشفقةً؛ وأنا الذي لم أهتم يومًا لكلامهم وسخافتهم، ويضحكني أصحاب القلوب الرّقيقة الذين يقدّمون مواساتهم لي ظنًّا منهم أنّني أعيش في عزلةٍ سوداء بعيدًا عن النّاس، ويضحكني أكثر فلاسفةُ الكتب، وخبراءُ التّنمية البشريّة حينما يحاولون تطبيق علومهم الجوفاء على نفسيّتي التي يعتقدون واهمين أنّها محطّمة، وأنّ شخصًا يمتلك وجهًا مشوَّهًا كوجهي

سيتحتّم عليه بالضّرورة أن يكونَ حزينًا وغاضبًا وحانقًا على البشر، بل وسيشعر بالنّقص أمام أصحاب الوجوه الحسنة.

أحدهم حاولَ أن يكونَ وجهي جزءًا أساسيًا من رسالة الدّكتوراه التي يعملُ بجِدٍّ على تفرُّدِها، وكعادةِ المثقّفين الذين لا تتجاوز ثقافتهم عقولهم بدأ معتذرًا لي عن الموضوع الذي سيتطرق له للضرورة الإنسانية، وأنّه لا ينفكُّ خجلًا كلّما أراد أن يفصحَ عنه أو عن الدافع الحقيقي للقائه بي.

كثيرًا ما تَذكّرتُ طّبيب النصائح المسمومة، لأنّني كثيرًا ما منعني الحياء أن أدير عجيزتي لهؤلاء الجَبناء أيضًا، والذين يتدثّرون بقشرة الإنسانيّة حين يلهثون وراء مصالحهم الشّخصيّة.

قلتُ له بعد ضجرٍ فرضه عليَّ فرضًا: وجهي القبيح في خدمتك ... ماذا تريد منه؟

ما أرادهُ لم يجده عندي؛ فقد ظنَّ أنه سيقابل شابًا مهزوزًا متقوقعًا على نفسه، بينما وجدَ أمامه شابًا يحبّ الحياة، ويحبّ النّاس ويفتخرُ بوجهه المشوّه بعد أن تصالحَ داخليًا مع ظاهره، كما يتفاخرُ النّاس بما يمتازون به، ويتصالحون مع دواخلهم بأمور أخرى.

يزعجني أولئك الأشخاص الذين يتنطّعون بكلمات سخيفة ويردّدونَ جملًا فارغة، وفي لحظات الصّفاء والسكينة يأتيك أحدهم قائلًا: الجمالُ هو جمال الدّاخل، أو المهم هو الجوهر. وهل يضير أن

يجتمعَ الجميلان معًا في خلقٍ واحد؟
هو كلام المفلسين لا أكثر، لكنّني كنتُ كثيرًا ما أردّد تلك الجملة الشّهيرة لسقراط: (إذا حسَّن الله وجهك فلا تضف إليه قبيح المعاصي، أو قبَّحه فلا تجمع بين قبيحين).
لذا واسيتُ كثيرًا مِن أشباهي بوجهي، واسيتُهم بتلك الأشعار والقصص والمواعظ، حتّى أنّه اقترحَ علي الكثيرون تأليف كتابٍ عن تعاملِ المشوَّه مع المجتمع، خاصّةً وأنّني استطعت في احتفالٍ ضخم أنَ أجمعَ وأوحِّدَ صرخةً واحدةً من على شفاهِ أكثر من ألف مشوّه حيث قال الجميع حينها معًا: أفتخرُ بأنّني المشوَّه.
أضحكُ الآن لأنّني لم أفعل (كداروين) مثلًا، والذي بسبب شيءٍ كهذا أرادَ أن يثبتَ للبشريّةِ جمعاء أن أصلَ الأنسان قردٌ لا محالة.
وهنا اعترَضت صديقتي على الجملة الأخيرة بشدّةٍ وطالبتني بالاعتذار (لداروين)، ولاحقتني غاضبةً بعدما تركتها ومضيت.
منحتني شعورًا مميزًا أثناء ملاحقتها لي في شوارع المدينة، ثم منحتني هذه الحسناءُ سعادةً غامرة ونحن نلاحقُ بعضنا ضاحكين مازحين وسط استهجان الكثير لما يحدث.
أخيرًا قالت لي وقد قبضت عليَّ: أحبّك أيّها المشوَّه. قد يعتقد البعض أنّي نظرتُ إليها كشيء من المستحيلات، وأنّي كنتُ أراها حلمًا بعيد المنال، أو كدتُ أطير من السعادةِ حينها، وقد تسألون أنفسكم:

كيف لحسناء كهذه أن تقترن بي؟ . أجد تساؤلكم في الحقيقةِ منطقيًا من وجهةِ نظرٍ مادية ولا ألومكم على هذا؛ لكنكم قد تتعجّبون أكثر إن قلتُ لكم إنني جلستُ طويلا أفكّر في قبول عرض الزّواج بها، وبعد مئةِ استخارةٍ قبلتُ وأمضيتُ شروطي ضمن منطقِ الرجل الشرقي الغيور الذي يتلبسني.

الطّبيبُ، وأصحاب القلوب الرّقيقة، وفلاسفة الكتب، وخبراء التّنمية البشريّة، وصاحب رسالة الدّكتوراة، والألف الذين صرخوا يومًا؛ جميعهم حضروا الزّفاف، وجميعهم نظروا إليّ بحنقٍ وحسد.

حسدني الجميلُ لأنني تزوجتُ جميلة وكأنّني استلبتُ حقّه، وحسدني القبيح لأنّني تزوجتُ جميلة لا يستطيع الظّفر بها، بيد أني بدوتُ هادئًا غير عابئ إلَّا بما أضمرتهُ مذ ولدت؛ فأنا المُشوَّه الذي آمنتُ (أن مقاييس الحق ليست كمقاييس الخلق) آملًا بما سألقاه وما سيأتي، ورضيتُ عمَّا كان كيفما كان وسيكون.

نعم أنا المشوّه الذي هبطَ من بطن أمِّه هكذا فأتى قبيحًا، بينما تقنَّع البعضُ بأقنعةٍ تخفي بشاعةَ وجوهم وبشاعةَ دواخلهم، فرأيتُ نفسي بمرآةِ الله فأحببتها، وشاهدوا أنفسهم بمرآة الغير فكرهوا كلَّ شيء.

الباب

ساحَةٌ مليئة بالخردوات، وأصواتٌ لم يألفْها من قبل، وشتائمُ يتبادلها العاملون مجّانًا فيما بينهم تبدأ بما تحت الحزام، وتنتهي بما فوقه. هذه هي الحياة التي انتقل إليها بين ليلةٍ وضحاها.

الليلة الأولى هي الأصعب دائمًا في أي كارثةٍ ومصيبة، ثم نبدأ بالاستسلام تدريجيًا بعدها بتلقائيّة الحائر فيصبحُ السّجنُ بيتًا آمنًا، والميّتُ ذكرى، ويصبح الفراقُ _فراقُ أيِّ شيءٍ_ واقعًا لا مفرَّ منه.

صنعهُ نجارٌ مسنّ قبل خمسينَ عامًا بآلاتٍ بدائيّة من شجر البلّوط بعد أن حفره بأناةٍ ودقّة؛ بينما وضع المسامير في خواصره كطبيبٍ يعالجُ إبرةَ مخدّر لوضعها في العمود الفقري لمريضه متوخيًا الحذر، أمّا الغِرَاء فكان يأخذهُ كرسام يحرّرُ فرشاته الأنيقة واضعًا لمساتهِ الأخيرة على لوحةٍ زيتية من خلاله.

(التّحفةُ) هذه كما أسماها أثناء شرحهِ للذي اشتراها بثمنٍ باهظ أخذَت من عمرهِ عامًا كاملًا، قبل أن ينتهي الحدّادُ والزَجَّاجُ من عملهما الذي أراد أن يضيفه لرائعته على حسب وصفهِ، حتَّى إذا انتهى من تثبيتهِ مغلقًا إيّاه مرّة وفاتحًا مرّات، متأكّدًا من جودة الزّرفيل مرّاتٍ ومرّات أمام دهشةِ العائلة لهذا الحرفيِّ؛ راح يربّتُ عليه ويتعامل معه كوليدٍ لم يبلغ الحلم بعد.

لم يتمالكوا أنفسهم من الضّحك حينما قبَّله ذارفًا دمعة وصفوها بالغبيّة، قائلًا للأديب وقد راح يتأمل وجوهَ عائلته كمن يحذرهم:

تستطيع الآن إغلاق بابك الخشبيَّ لتحمي مكتبتك للأبد.
الأبَد لا يكون من نصيبِ الأشياء بل من نصيب خالق الأشياء؛ لكنّه أدركَ وقتها أنّ وظيفته في هذا البيت تقتضي حجب الأصوات عن مسامع الأديب أثناء دخولهِ عالمَ الكتابة والقراءة، وأن يتشبث بكلّ ما أوتي من قوةٍ بمفاصله وزرفيله إن أراد أحدٌ ما التّطفل والدّخول إلى المكتبة أثناء غياب الأديب عنها.
خمسون عامًا قضاها مستمتعًا في مكانهِ، يختزنُ ما يتناهى إلى مسامعه: من شعرٍ وفلسفةٍ واجتماع وفقهٍ وتاريخ؛ متشوّقًا دومًا لسماعِ تلك الحواراتِ التي يخوضها الأديب أحيانًا مع أصدقائهِ أو أبنائهِ أمامَ عينيه.
لكنّه الموتُ؛ والموتُ وحدهُ ما لا نقاش فيه، ولا رجوع منه، والموت وحده مَن جرَّد هذه الغرفة من صاحبها، والحياةُ وحدها بعد ذلك من سمحت لتلك البلهاء بالحضور ليلًا مطالبةَ زوجها بالتّخلص من المكتبةِ وما فيها واصفةً إيَّاها (بالكراكيب)؛ لتتحوّل هذه الغرفة بين ليلةٍ وضحاها إلى حاضنة أطفالٍ وظيفتهم في الحياة البكاء والصّراخ واللعب فقط.
ذهبت أشعارُ (المتنبّي والبحتري وشوقي) أدراج الرّياح. تلاشت الحوارات والنّقاشات حول (بيكاسو ونيتشه وأرسطو) مات (أشعب والجاحظ والسّكاكيني) حينما مات الأديب، بينما ترعرت

على تلك الأطلالِ أحاديث الحليب والرّضاعة والمناغاة ليلًا نهارًا أثناء تبديل حفاظات الأطفال.

خمسونَ عامًا من الخدمةِ في هذا المنزل انتهت بقولها: لم يعد هذا الباب مناسبًا لديكور البيت. وقبل أن يخلعوني قسرًا من عرشي جاءت مُعذبتي بباب زجاجيّ هش لا يساوي جناحَ هسهسةٍ متغزلةً بأناقته، مشيدةً بصلابته، وتناسقهِ مع أثاثها البغيض وذوقها الرّديء، فما كان منّي إلا التمثل حزينًا وحيدًا شريدًا ببيت شعرٍ سمعته يومًا من صاحبي:

وما يزهدني في أرض أندلسٍ
ألقابُ معتصم فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها
كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولةَ الأسدِ.

اشتراني (مشهور السفاح) بثمنٍ بخسٍ دنانير معدودة، وقد عرفت فيما بعد أنّ السّفاح لقب أطلقه عليه جيرانه وزبائنه بسببِ شرائه الأشياء بثمن بخس، ثم المغالاة وإجرامهِ عند البيع. (مشهور) هذا لم يكن أفضل حالًا من بائعتي، غير أن لسانهُ البذيء وقذارة ملبسهِ ومأكله وسوقيّته ما جعلني أبغضه أكثر منها متمنيًا الموت في موقدة الحطب بكرامةٍ عوضًا عن بقائي في مستنقع النّفايات هذا.

كثيرًا ما رأيته كالحرباءِ يبدّل جلده حسب مزاج وأخلاق وطبيعة

الزّبون؛ فتارةً تراه وقد افترش سجّادة الصّلاة مصليًا الظّهر ثلاثًا، وتارةً تراه وقد أشار للثالوث ببراعة، وتارةً تراه وقورًا متّزنًا، وتارةً _وما أكثرها_ ساذجًا أبلهًا وطائشًا.

قبل أشهرٍ مثلًا سمعتُ حواره مع طالبٍ جامعي فقير أرادَ ابتياع مكتبٍ صغير. بدا (مشهور) وقتها (كالقيرواني) تمامًا مستشهدًا بالغرِّ من أحاديث ولطائفِ وأشعارِ العرب، غيرَ أنّه تحوّل مباشرةً كحارسٍ لملهى ليليّ حينما اكتشف ضيقَ عيش الشّاب. هذا الشّاب الذي سمعته متمتمًا أثناء هروبه من المكان:

حرباءُ تعرفها في العتمِ والنّورِ

وتلمس اللؤمَ في أحوالِ مشهورِ.

لم يسمعه طبعًا كما سمعته، لكنّه داسَ لفافة تبغهِ الرّخيص غاضبًا، رافعًا يديه ومكررًا بسخريةٍ ما قاله الشّاب عن الجمادِ الذي يمتلكُ الإرادة والمشيئة مثلَنا حسبَ زعمه.

قالَ لأحد عمالهِ ضاحكًا: هذا يعني أنّ بابنا الخشبيّ هذا_ وضربني على بطني بعنف، لا سامحه الله _ يمتلك المشيئةَ والإرادة. ضحك العامل مجاملًا، قبل أن يحكَّ رأسه حكةَ البلهاء؛ بينما استطردَ بالشّرح كمن يحاول استيعاب الفكرة من جديد مخاطبًا الهواء: هو يشيرُ لحادثة (الخضر وموسى) عليهما السلام في الآية (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ)، فاستنبط (أخونا) بأن الجدار يريد، وعليهِ فهو

يمتلك الإرادة والمشيئة. هزَّ رأسه ببلاهة قبلَ لعنه وشتم الطالب، محمّلًا إياه وأمثاله من المتنطّعين لعنة التّخلفِ التي أصابتنا بسبب هذه الأفكار الغريبة.

لم أعتد وقوفي بهذا الشّكل طويلًا ولكنّها الحياة وتقلّباتها، وهو (الدّهرُ ذا أمنٍ وذا خطرِ)، فمن وظيفةِ حارسِ لمكتبة تعجّ بما لذَّ وطاب من الكتب، إلى لوحٍ بائسٍ على جانب الطّريق تقف عليه العصافير التّافهة أحيانًا وتبول عليه الكلاب الجائعة ليلًا؛ وأحيانا وما أكثرها تلك الأحيان يظلُّ وحيدًا متّسخًا يعاني ما يعانيه من صفعات الحرّ وسياط الشّتاء.

(لكلَّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ) وقد كنتُ في تمامي شامخًا أحظى باحترام صاحبي الأديب، وها أنا أقف اليومَ منكسرًا (كابنِ عَبَّادٍ) في أغمات المغرب، أتذكرُ أيّام الطّين التي لا تعود.

تملّكني اليأس بالكامل حتى إنّني لم أصدّق أن هذه الحسناء الفرعاء المصقولة عوارضها؛ والتي وقفت أمامي بقوامها الممشوق وصدرها الممتلئ حيويةً قد ابتاعتني، بل وأصرَّت على نقلي لمنزلها الحديث بالحال. هذا المنزل الذي تناثرت في أرجائهِ بعد ذلك التّحف والنّفائس القديمة. كدتُ من الفرحةِ لولا الحياءُ الذي أعاقني كما أعاق مراكبَ (المتنبي) أن أرقصَ طربًا لنيلي وأخيرًا حريّتي، ومنحي المكانة التي أستحقها بعد أشهرٍ من المعاناة والألم.

وداعًا مشهور وإلى الأبد... هل قلت الأبد؟!
لعلي بدأتُ أتشاءم من هذه العبارة؛ فالنجَّارُ قالها لمن يقدَّر فحافظَ عليّ، ثم أتى من لا يقدِّرُ فطرحني بين أحضانِ (مشهور)، ولست أدري أيَّ مصيرٍ سألقاه من الحسناء والتي أخشى أن يكون عمري أطولَ من عمرها.
في البدايةِ شعرت بالرّاحة والطّمأنينة خاصّةً وأنّها تعيش بمفردها، وهذا ما يزيح عن كاهلك عناء تحمّل مشاكسة الأطفال وتحمّل إزعاجهم وركلاتهم وصفعاتهم المجانيّة.
تعودُ في آخر الليل تلقي بجسدها الجميل على السّرير وتنام سريعًا كعاملِ بناءٍ أنهكه التّعب، تستيقظ في الظّهيرة، تستحمّ، ترتدي ملابسها الأنيقة وتخرج مسرعةً ثم تعود لذلك الرّوتين العجيب.
تشابهت تلك الأيّام بسبب الرّوتين حقيقة فلم أعد قادرًا على حصر تلك المدّة بالتّحديد؛ ولكنّني بدأت بعدِّ الأيّام التي تلت تلك الغيبوبة التي كنت أحياها بعد أن بدأت صاحبتي تعود كلَّ ليلةٍ برجلٍ مختلف؛ وتمارس معه الحبَّ دونَ حياء على مرأى ومسمع من كلّ هذه الجدران والأبواب الخلوقة.
أين النّجار الذي استغرقَ عامًا كاملًا بصناعتي؟ وأين الأديب؟ بل أينك يا مشهور؟
مشهور الكاذب والمنافق والمتّسخ والسّوقي رجلٌ جميل. الآن أدرك

أنّهم ظلموكَ حينما أطلقوا عليك لقبَ السّفاح، كان الأجدر بهم أن ينعتوك بالقدّيس، فأيُّ وجهٍ بريءٍ تحمله لم أكن أراه؟ وأي قلبٍ صادقٍ هذا الذي يبيح لك أن تخدع به النّاس يا ترى؟

مَن هجاك ببيته اليتيم لا يعلم أنّ النّاس تعيشُ خلف الجدران كما لا تعيش أمامها، وأنّ الفضاء المكشوفَ وحده مَن يفضح الفقراء أو المساكينَ لكسبِ قوت يومهم. من هجاكَ لا يعلمُ أنّك واضحُ النفاق ظاهرُ الخديعة ومن السّهل اكتشافك؛ وأنّ بعضَ الثّيابِ الأنيقة وربطات العنق قد تخفي خلفها أناسًا لا يبدَّلون جلودهم فقط؛ بل وأصواتهم ولغاتهم وعيونهم، وقد يبدّلون أجهزتهم التّناسلية أيضًا كلَّما عوت الطّبيعة في دواخلهم بلهجةٍ قميئة.

شاهدت العجائب، وتسوسّت أعضائي من هول ما رأيت. حسناواتٌ أخريات سكنَّ في بيت البغاء هذا، ورجالٌ ارتادوه بشكلٍ دوريّ، وأنا... أنا الباب الذي كنتُ حارسًا على خزينةِ معارفٍ، انتهى بي الحالُ حارسًا على خزينة ملابس داخليةٍ وفساتين سهرة ورقص. يا للعار... فهل تراني (دعوتُ على عمرو فمات فسرّني... فلما أتى زيدٌ بكيت على عمرو؟)، أم أنّ الأبواب تتساوى مع الجدران في جريمة إخفاء هذه الأسرار العظيمة؟ فتصبح شريكةً للإنسانِ أيضًا في الخطيئة رغم زرافيلها؟!

أقفُ الآن خجولًا من نفسي سامحًا لمن هبَّ ودبَّ المرور من نوبةِ

حراستي، ولكنّني أعرفُ هذا الوجه الذي وقفَ محدّقًا بيَ الآن. أعرفهُ جيدًا، أعرفهُ مذ كان صغيرًا يتلصّص على الأديب وأوراقهِ بفضول قبل أن يرتمي بأحضانه ملاعبًا إياه، ولأنّ الدّهشةَ قد استهلكها منّي أولئك الذين يتاجرون بالدّين والوطن نهارًا، ويرتمون في أحضان المومسات ليلًا، فلم أندهش لرؤيته حقًا هو الآخر.

كنتُ أراهم على التّلفاز يتحدّثون عن الإنسانِ وحقوقهِ، عن الوطن وترابه، ثم أراهم يشترون الإنسان فوق السّرير، ويبيعونه فوق السّرير، ثم وعندما يثملون فلا تجد أحدًا منهم يتحدّث العربيّة، فجميعهم عندما يتعرّون؛ يتعرّون من كلِّ شيء لا من الملابس فقط، أمّا (مشهور) فقد كان في جميع أحواله حتى في سكره يتحدّث العربيّة، بل وكان يستشهد أحيانًا بأبيات (الحطيئة) دونَ أن يلحَن.

لم أشاهده بعد أن باعني لها، كما أنه لم يستجب لدعوتها حينَ دعته ذات يوم لإحدى سهراتها. قال لها بنبرةٍ واضحة: أمتلك رصيدًا ضخمًا منَ الذنوب التي أحتاج لتجميد حساباتها عوضًا عن مضاعفتها.

نعم أعرف هذا الوجه جيدًا وقد وقف محدّقًا بي. تفحّصني جيّدًا، راح يدورُ حولي ممسكًا بيدي متحسسًا لبطني وظهري ويدي بنظراته الفضولية ذاتها التي لم تتغير، فلمَّا استيقن أن البابَ الذي يراه أنا لا سواي احتضنني بقوة وراحَ يصرخُ منتحبًا: إنهُ باب أبي... كيف جاء إلى هنا؟... تحفةُ أبي بمسامريهِ ونحتهِ ورائحته.

صرخَ باكيًا وقد أمطرني بعبراتِه الساخنة قبل أن يغادر مسرعًا مدركًا أنه لن يعودَ ليراني مرةً أخرى، بينما بقيتُ أنا في مكاني إلى الأبد.

اليد اليسرى

وتكتشفُ أنّكَ آخر الواصلين هذا المساء، وأنّ البابَ الذي فُتحَ دونما طرقاتٍ قد فَتحَ لك أبواب الخطيئة على الغارب، وأنّ الحسناءَ التي أمامك الآن هي ذاتها مَن سترقص بعد قليل خلفَك، وعلى حجرك، ثم عليك وتحتك.

وتكتشفُ أنّك مثلهم تمامًا؛ هم يكذبون وأنت كاذب، هم مقنَّعون وأنت كذلك، هم يشربون الخمر جلوسًا بينما تقف ضاحكًا خطيبًا بهم: (يا قوم، هذا أوانُ الشدِّ فاشتدي زيم).

تقعُ أرضًا فتقع عليك، تقبِّلُها دونما لذّة، ثم تقبّلها دونما لذّة، ثم تنهض شاتمًا العاهرات على اغتصابِ رجولتك.

تعترضُ إحداهنّ موبّخةً الجميع على موافقتهم إيّاك، وللحظةٍ تشعرُ أنّها محقّة، لتنهضَ من جديد مستجمعًا قواكَ الصّوتيّة صارخًا بهم: (يجب أن تثق بنفسك، فإن لم تثق بها فمن الذي سيثق بك؟).

يضحكُ أحدهم، لا تكترث، تتنقلُ عيناك هنا وهنا، ومن ثم تسألهم: ماذا تفعلون؟

- أنا أتيت مع هذا. (ويشير للنّائم على الأرض) ثم يقولُ آخر: وهو أتى مع ذاك. (مشيرًا إلى الغرفةِ حيث لا أحد هناك).

تبحثُ عن ذاك تحتَ غطاءِ السّرير، تحت السّرير، تحت السّجادة، في الخزانة وَفوقَها، ثم تراه فجأة في المرآة.

تشير إليه مندهشًا: تبًا، أنت هنا، والرّذيلة في الخارج؟!

لا يحرّكُ ساكنًا بينما تسحبه قافلًا من يده اليمنى غيرَ ممانع لرغبتك. تقفُ وإيّاه أمام جمهوركِ العريض، ثم تطالبهم بمحاكمة هذا الشيطان.

هل قلتَ للمومس اجلسي هنا، ثم لصويحباتها هنا هنا وهنا؟

هل قلتَ لأحدهم أمَّا أنت فهنا، وللآخر هنا، ولآخر هنا؟!

لا تذكر؟!

لا يهم ما قاله وما نسيه، فقد كانت محاكمةً عادلة يترأسها قاضٍ بنكهةِ أنثى، وعدّةُ محلّفين من الجنسين متحريًا المساواة بهذا الأمر، وبعض الشّهود الذين لم يشاهدوا شيئًا، وكنتَ المحامي عن المتّهم الوحيد في قضية الحثّ على الرّذيلة.

سيّداتي، سادتي (ضحكَ الجميع) هذا يُعدُّ استهتارًا بالعدل، وبالقضاء النّزيه، وهنا كان عليك أن تكونَ حازمًا وتطلب من القاضية مطالبتهم باحترام الجلسة، ولم تستغرب حينما استجابت لك ورفعت كأسها مطالبة الجميع بالسّكر والسّكوت.

قلتَ حينها: (إنّ الشّيء لا يكتمل بمجرد الوصول إليه، وإنّما يكتمل عندما يصل لنهايته). صفق لك الجميع فانحنيت احترامًا لهم، ثم دافعت عن المتّهم الذي جلُّ ذنبه في هذه الحياة أنّه يحبّ الحياة.

بكت وأبكتهم جميعًا ثم رفعَت كأسها مرّة أخرى فرفعوا كؤوسهم قائلةً: حكمتُ عليهِ بالبراءة (فالجوع يحكم نصف العالم، والجنسُ

يحكمُ النّصف الآخر).

لم يرتضِ الحكم وأصر على ذنبه، قال: أنا من أحضر الرّاقصات، وأحضر الخمر، ودعا الأصدقاء، ونقدَ المومسات، أنا من استأجر المكان، ووطد نظريّةَ الرّذيلة العفيفة، وأنا وأنا وأنا؛ بيدَ أن الجميع أصرَّوا على براءته.

- لستُ ظالمًا ولا طاغيًا كي تختلقوا أعذارًا لي، ويحكم، استفيقوا لست حاكمًا لقتلةِ الهنود الحُمر. (صرخ بهم بأعلى صوتِه).

أعدتَهُ للمرآة بعد انفعاله وجنونِه. خشيتَ عليه من الانتحار فسامرتَه قليلا ثم رحلت تاركًا إيَّاه فريسة لوساوسه.

لعلّك لا تعلم ما حصل بعدها! فقد عاد للمحاكمة معترفًا دونَك بأنّه لم يسرق طوال عمره. لم يسرق قمحةً ولا نملةً ولا نقطة حبر. لقد اعترف دونَك باستقامتهِ فأقاموا عليه الحدّ لحظتها ودونما رحمة.

لعلّك عرفتَ الآن لماذا تكتبُ بيدك اليسرى منذ ذلك الحين؟

إنذارٌ أحمر

(أينَ هوَ)؟ وانحنَتْ مذعورةً مولولةً علَّ أحدهم ينقذُها من براثنِ (الطمَّاح) وقد اقتحمَ متجرها الصّغير كارعًا زجاجةَ خمر رخيصة، متسَيّدًا المكانَ والشّارعَ والنّفوس، ضاحكًا لسذاجتها مترنّمًا_وقد جَثت على ركبتيها_ على سيمفونية صراخها المكرّرةِ (لكوبليه) واحد: (أين هو يا ناس... أين هو)؟

ولأن القوم اعتادوا على هذا الصّريخ والنّواح، ولأنّهم جُرِّدوا المرّة تلو المرّة من مسحات الإجابة، فقد بدا نداؤها باهتًا كوجوههم التي لا حياة تحتَ جلودها، وكأنّ شارعَهم هذا سلبَ طرائقَ الحياةِ وجماليتها، مانحًا إيّاها لشارعٍ آخر موازٍ له؛ شارعٍ يتدافعُ المشاةُ على أرصفتهِ كتدافعِ القطاة إلى الغدير، سيما وهو يكتظ بالمحالّ التّجاريّة على جانبيهِ وقد زيَّنتهُ بطريقةٍ عشوائيّة مميّزة، مجبرةً الباعة المتجوّلين على حملِ بضائعهم في أحيانًا إلى أماكن أخرى باللينِ أحيانًا وبهراوةِ المرتشينَ أحيانًا أخرى؛ لأنهم _حسب زعم التجَّار_ يُقبِّحونَ أناقةَ هذا الشارع الباذخ بما لذَّ وطاب.

وحده (الأبتر) من احتلَّ المنعطف عارضًا على (فَرش خشبي) _ أكلَ السّوس عليه وشرب_ بضاعتَه البسيطة من الملابس الدّاخليّة والجوارب، ورغم معارضة أصحاب المحالّ لهذا البائع يومًا إلّا أنّهم غضُّوا الطّرف عنه بعدما أصبح مَعلمًا من معالم هذا الشّارع؛ فثلاثون عامًا كفيلةٌ أن يصبحَ وجههُ المتشظي وقدمه الوحيدة تراثًا مَلموسًا

في هذه الزّاوية.

كثيرًا ما سمِعَ أحدهم يشير لآخر: قبل أن تقترب من (الأبتر) على اليمين. أو: اترك ذاك (الأبتر) خلفكَ ثم انعطف شمالًا لتقصدَ وجهتَك. وللوهلةِ الأولى قد تظنّ أنّ هذا الرّجل فَقدَ مع قدمه صوتَه لأنه نادرًا ما يتكلم، وهذا ما ظنَّه (الزّبون) بادئ الأمر وقد توقف لشراءِ وشاحٍ منه؛ قبلَ أن يجيبه بصوتٍ أجشّ حزين: كلا يا بنيّ، إنَّه من بضائعي السورية.

قلَّبه الزّبون بشكّ ثم رماه من يده ساخرًا: هذا الوشاحُ تركي المنشأ.

- كلا، هو صناعةٌ سورية.

* يا شبيه الإنسان، هذا تركي، أنت كاذب.

- أقسم لك سيدي.

* كاذب...

كاذب، وتركهُ الزّبون مستقلًا سيّارته، ملتفتًا إليهِ وقد استشاطَ غضبًا من هذا المسنّ الذي جعلهُ الله عبرةً لأولي الأبصار، فاتعَظوا بينما بقي كاذبًا مخادعًا ولم يتّعظ. قالها في سرّه قبل أن يصل وجهته ويوزِّعَ بعدها نظراته في أرجاء القاعة التي امتلأت عن بكرةِ أبيها برجالِ الدّولة المدنيين والعسكريين، ثم ليثبِّتَها _أي نظراته_ على المسرح الذي وقف عليه أحدهم مشيدًا بمكرمات وشجاعة وبسالةِ وذكاءِ (الجنرال) الذي وبعد أن صفق الجمهور واقفًا له بحرارةٍ:

ألقى خطابًا حماسيًّا بدأه ببيت الطائي:

السّيف أصدق إنباءً من الكتبِ

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعب.

قالَ وأسهب، وأسهبَ وقال، وأشرقَ وجههُ مرّاتٍ ومرّاتٍ كلّما تناول منديلًا ماسحًا جبينه من الحماسة، مشرقةً أسارير وجهه للتّصفيق الحارّ وقد تسلَّم وسام الشّرف من الدّرجة الأولى تكريمًا له على انجازاتهِ العسكريّة اللامسبوقة؛ (فالجنرال) يعدُّ الطّيار الأوّل في الجمهوريّة، والطّيار الأوّل الذي سحق الخارجين عن القانون وأزاحهم عن الوجود، فلولاه لعاثوا فسادًا في البلاد والعباد، ناهيك عن دبلوماسيّته وحنكتهِ في حلّ المشاكل المستعصيّة في أروقةِ ومنصات الأمم المتحدة، وقبل أن يغادر الجميع صدح (الشّاعر) بقصيدةٍ عصماء واصفًا (الجنرال) بـ: الشّديد، الوارم الهمام، الصّنديد، الأحمس، الصيدح، الكلاعي، السميذع والغشمشم؛ مختتمًا وصلةَ المدح الرّدحيّ بإسقاطينِ بلاغيين حيث قال له: (أنتَ أنتَ) هنا صفق الجمهور بحرارة أكثر من سابقاتها وسط بعض الهتافات: (نعم، فهو هو).

بعد هذه الأجواء الصّاخبة غادر الشّاعر والجنرال والزّبون والجمهور القاعة في الوقت الذي غادَرَت (الطَّاح) فيه بقايا عقله؛ ليزمجر منتشيًا بسكره بينما أمسكَ الفضول أيديهم وساقَهم نحو

صاحبة الصّوت الملائكيّ التي لم تتوقف عن تكرار نفس النّداء: أين هو يا ناس؟ أين هو؟

أزاح الزّبون أحدهم ليشاهدها جيّدًا، بينما طوى الشّاعر قصيدته العصماء واضعًا إيَّاها في جيبه متعجبًا كيف أنّ (الطَّاح) حرق مركبةً في منتصف الشّارع ثم احتلَّ متجر هذه الأرملة، بينما أعتصرَ ألمًا لندائها المزعج المكرّر: أين هو؟

نظرَ باتجاه (الجنرال) قبل أن يسرق أنظاره ذلك المسنُّ بثيابهِ الرّثَّةِ وقدمه الواحدة؛ وقد ساعدتهُ عكّازه أن يقفز مسرعًا (ككنغرٍ) مقتحمًا الجموع قاذفًا (بالطماح) على الإسفلت مضرّجًا بدمائه، مسدّدًا له ضربات موجعه بعكَّازه القديم، ثم وبعد أن خلَّفه بلا حول ولا قوّةٍ تابعَ طريقه إلى حيث (الفرش) الموسوِّس.

هتف الجميعُ بعدها بحياة الجنرال الذي نقَد صاحبة الصّوت الملائكيّ ورقة دولاريّة قبل أن يغادر الجميع، بينما بَقيَت على الأرض ورقةٌ حمراء سقطت من جيب (الأبتر) منذرةً إيّاه بضرورة دفع ما تراكمَ عليه من ديونٍ ودفعات مستحقة قبل أن يضطرّ البنك آسفًا لطردهِ من منزلِه؛ واقتطاع باقي ديونه بعد ذلك من راتب تقاعده العسكري.

تصفيق

وقَفَ أمام المحقّق مُدافعًا عن تهمته التي اعتبرها باطلةً من الأساس.

قال بثقتهِ المعهودة: (سيدي: ستبدو ضعيفًا عند اتخاذكَ قرارًا قد يمزُّقك من الدّاخل، وأضعفَ بكثير إن عدت عنه، متراجعًا خطوةً للوراء، فحينها قد تكون أمامَ خيارين لا ثالث لهما: فإمَّا أن يعرفَ لك المقابل فضلَ محبته، فيجبر انكسارك، وإمَّا أن يأخذك المقابل مطيةً لحمله وغروره على ظهرك المكسور.

مَن لا يراك بعينك سيرى غيرَك بعينه، فإن فعلَ داسك دون أن يدري، مثل أحدِ الفيلة وقد جلسَ على مَن فكَّ وثاقه يومًا خوفًا عليه من البرد، إذ ردَّ له الجميل بقتلةٍ مريعة، فلمّا استيقنَ سوءَ عمله وتصاغرَ في نفسه تعاظمَ عند أهل القتيل، غيرَ أن القصاص في لغةِ الغابِ شرَّعَه الأقوى؛ لذا فقد دفعَ الديةَ دمعًا امتصه التّراب بعدَ أن التهمَ المشرِّعُ عشاءَه الدّسمَ في بيت العزاء.

وهكذا لن تقفَ الحياةُ عليك، ولن تتوقّف العجلة الكونيّة عن الدّوران بحزنٍ أعاقك عن المسير، بل ستقف عندما تقرّر احتراف القسوة أمام نهرٍ كمَن وقف يومًا أمامه مادًّا اصبعك كما مدَّ هو أصبعه لعقرب أوشك على الغرق، وكلّما لسَعك عُدت كما عادَ لإنقاذه، وعندما ينجو مستغربًا مما أنت عليه يدركُ حينها أنّ في طبعك الصّفح والعون، وفي طباعه الغدر واللسع، وأنّ كلًّا منكما

تعاملَ بطبعه، ليفرَّ من أمامك خوفًا أن يُقضى عليه بعفوك؛ بعد أن تيقَّنَ أنه لن يقضي عليك بمكره.

لكن إن لجأت لصدرٍ يحميك من طعناتِ غيره فاحذره قبل ارتمائك عليه، فقد يحمل هذا الصّدرُ جسدَك للمقصلة، وقلمك للموقدة، وكلَّ تاريخك نحو مكبِّ النّفايات، فالصّدر الذي يحنو... يحنو دون مقابل، والصّدر الذي يقسو... يقسو لأنك لم تدفع له الجزية من غبائك وبلاهتك وسذاجتك، فالذي لا يفهم وجيزَك لن يفهم إسهابك، والذي لا يرى الكسر في صوتك لن يراه بخاطرك، والذي لا يلمسُ القهرَ على وجهك، لن يلمسه بحرفك، والذي يبتعد عنك خوفًا من شبحٍ ما فاعلم أن لا شبحَ يخيف جُرمًا إلا في المحال.

وها أنت تحملُ قلبًا خرمشته النّهايات، وكنتَ تدرك أنّ قلبًا كقلبك لا ينتصر عليه عابدٌ بل فاسق، ولا حاذقٌ بل جاهل، فقد كنتَ في لجةِ اليم كما كنت على اليابسة واضحًا ثابتًا لا يخيفك مِن القنا مَن رمَاها.

إنّه الصّدق الذي تبخّر من كلامهم، ولا يدرون ما الفرق بين إخفاء الحقيقة وتزوير الحقيقة، فالشّمس التي تحتاج دليلا لإثباتِ نفسها هي ذاتها الشّمس التي لا تحتاج الدّليل، والنّهار الذي يحتاجُ لحجّةٍ دامغةٍ لوجوده هو ذاته النهّار الذي لا يحتاج تلك الحجّة، ولكنّها العقول التي لا تفرّق بين عتمةٍ وعتمة، وضياءٍ وضياء، فإنّ تشابه

المتشابه دون النّظر لكينونة الأشياء تساوى الأضداد قبل الأقران، ورجّحت القفزان بالرّيش مع الصّخرِ محطمةً قوانين الفيزياء الحسيّة، والمعادلات الرّياضيّة المُتوقّعة، فكيف لا تسقطُ أمامَهم وقد سقط (نيوتن) من أعلى الشّجرةِ بدلَ التّفاحة؟

إنّه الصّدق في أن ترى وجهك دون أن تخشاه، وتسمع صوتك دون أن يزعجك، وتسمح لقلبك أن يتفاعل مع نغمة جاءتك من نافذة الجوار، وحينما تكون أنت، ويكون كلُّ ما فيك أنت، ستصل الذّروة في كلّ شيء، فما إن استحلتَ لسواك انتهيت.

فليس من المعيب أن نخفي نبضًا، ولكنّ المعيب أن نخفي الحقيقة خلف ستائر القلوب، لنبرهن للضّياء بأنّ لا شيء يمنعه من الجلوس على الأريكة.... ألم تسأل يومًا نفسك إن كانت الأريكةُ مريحة للضّياء أم أنه يفضّلُ المقاعد الخشبيّة؟

كن في المؤخّرة فقد اكتظت بمن هم على شاكلتك، واجلس حيث يتّسع المكان لمن سيأتي، ولا تجادل أحدًا فقد ملَّ الصّادقون من بيزنطيّة الحوار، وتعبوا من حمل فكرهم يوم الرّحيل بعيدًا من الجاهلين.

كن حيث تتشابه القلوب والكسور والنّدوب، وحيث لا فضلَ لتافهٍ عليك، ولا لشبحٍ على ظلّك، واترك نفسك للموج القادم فأصدق الموج من حملكَ على ظهرهِ دون قارب... وأكذبهُ مَن حملَك على

ظهرِه دون قاربٍ أيضًا).
لم يصفّق له أحدٌ سيما بعدَ أن تقعَّر وجهُ المحقّق قبل أن يأمرَهم قائلًا: خذوه مِن أمامي.

فرخ الباز

لم يستطع الانتظارَ طويلًا، فتصارعَ مع القشرة حتّى حطّمها ليخرجَ رأسهُ من بيضةٍ لا تليقُ _ على حدِّ زعمه_ بمكانته منتزعًا حرّيته بنفسه، رغمَ إنها حسب الإجراءات الكونيّة مسألة وقتٍ لا أكثر.

جلسَ مُستمتعًا بما يراه قبل أن يغتاظ لحديث والده وقد وجَّهَه لأمّه بعد أن قطعَ ثرثرته المجانية: أخافُ سقوطه فالزميه، فإني أراه يهرفُ بما لا يعرف، ويصفُ ما لم يرَ، وينتقصُ ما لم يحط به علمًا، محدّقًا إلى ما لا يملكه، ولا سلطان له عليه، متحفّزًا للفضاء بعينينِ شاخصتين للأعلى، ورضيعنا ليس (بشوقي) لنحضرَ له دراهم من ذهبٍ ليستقيمَ بصره ويعتدل، فعصر الإمارة ولّى، وزمن البلاطِ وشاعره انصرف، فكم من بازٍ تدجَّن؟ ومن صقرٍ تهجن؟ ولكلِّ قمةٍ قاع، ولكلِّ علوٍ هاوية، فمن أخطأ باحتسابِ الشّواهقِ هوى، ومن أتته القمّة طوعًا تجرّدَ من قدميه، فانحدر عند اهتزاز الرّيح بمَا تحتها، واحذري أن يتناولَ جرعةً زائدة من الهواء، فقد ظنَّ أحد الدّيكة يومًا بعد جرعةٍ زائدة أنّ الشّمس لا تشرق إلا بصياحه.

أمَّا هي فراقَصته متناسيةً ما قاله لها مدندةً لفرخِها الأهازيج حتّى اختالَ من فرطِ المديح، وتعاظمَ في عشّهِ تعاظُمَ مَن انحدر من بلاد فارس عبر أهزوجةِ (رائحة التّفاح) وقد راقصته أمّه حينها مكرّرة في أهازيجها الفارسيّة بين المقطع والمقطع مصطلحَ (سيبويه) فغلبت

عليه والتصقت به.

لكنّ فرخها لم يجلس عند (حمَّاد) طالبًا للعلم متتلمذًا على يديه، ولا قال له: أخطأتَ (فليسَ) هنا ليست على بابها، بل رقص على دفِّ أمّه وتمايلَ على مزاميرها، فما عاد يرى الدّنيا إلا بعينيها اللتين نبتتا من تربة قلبها لا عقلِها، ولا عاد يسمع غير صوتها الذي يضيع كما صوت المجامل عادة مع صدى الهراء.

لم يصدّق ما قالته النّوارسُ عن البحر، ولا الغرابُ عن القبور، ولا البومةُ عن الليل، فبحره وقبره وليله خيالات استشفّها من عين الرّضا المشدودةِ للسانِ مادحٍ راح يحدِّثُه بما يحب أن يستمع إليه.

شعرَ بهِ أبوه ثانيةً فاستوقفه قائلًا: يا بني؛ هناك من تنتظرهم الأرضُ وتدرك أنّهم فريستها لا محالةَ، فقد طاروا قبل أن يكسو الرّيشُ حقيقتهم، فلا تحلّق قبل أن تمرِّنَ عينيك على الحذر، وتتيبس عروقك، وتملأ حوصلتك بما يلزم الجسد، فقد جاء (الكميت) يومًا (للفرزدق) واستهلَّ (بالهاشميات) مُستنصحًا مذعنًا لرأي شاعرِ (مضر) وشيخها، وكذا يكون مَن لا يعلم بحضرةِ من يعلم، وكذا يكونُ من أراد التّحليق دون أن يصطاده أحدٌ، فلّما أجازهُ أذاعَ، ولو أسكتَه لسكَت، فمن يطلب النّصحَ عليه أن يرتضي بسيفِ الرّأي ونطعه.

بدا كأنّه يستمع بيد أنه لم يسمع شيئًا، أمَّا الأب فولجَ للفضاء ثم

عاد فلم يجده؛ فبحثَ عنه طويلًا قبل أن يعودَ بصمتهِ لا فرخِه وقد وجدها بانتظاره علَّه يحمل خبرًا عن ابنها الضائع.

استحلَفته مولولةً وقد أحسَّت بما يخفيه عنها فأخبرها بعد أمَّةٍ بحقيقة اختفائه نقلًا عن الدّجاجات في سوقِ عكاظٍ حيث قلنَ: إن فرخًا للباز وقفَ فجأة على حافةِ العشّ ساعة قبل أن يسبحَ في الرّيحِ ضاحكًا محذّرًا الجميع من مخالبه وسرعة انقضاضه، لكنّه وعندما استيقن عجزه، وأنّه لا يتقن السّباحة في لجّةِ الرّيح وبحر الفضاء، وأنّ لا رائحة للتّفاح تطرد رائحة الموت عن أنفه، ضمَّ جناحه الذي يخلو من القوادم مستسلمًا للنّهاية، فبدا بانقضاضهِ صخرةً ينقضُّ ويتدحرجُ بها على نفسه، حتّى ارتطم بالواقع على رؤوس الأشهاد والجمهور. وبدلَ أن يبكي الجميع فرخًا أرعنًا تجاوزَ (شبيثًا والأحص) أجهزوا عليه برمضائهم.

عابرٌ مُقيم

أنا ذلك الرجلُ الذي تجلسُ مصادفةً بجانبه، تشعلُ سيجارتك مقدمًا له واحدة فيتناولها بابتسامةٍ مصطنعة، ثم تحدثه عن أزمة المرور، والغلاء، وعن زوجتكِ المريضةِ منذ أشهرٍ وقد عجز الأطباء عن علاجها.

يأتي آخر؛ في مكان آخر فيحدثني عن وجهته القادمة، يحدثني عن ابنه المتزوج (بكندية) بهدفِ الجنسية، عن برِّه بوالديه، وكيف بعث لهم دعوةً لزيارته رغمَ ظروفه الصعبة هناك... ثم يشير: تلك أمُّه يا صديقي.

قال لي صديقي بعد دقائق فقط، ومضى دون أن أراه ثانيةً.

أنا العابر الذي وقفَ خلفَ تلك الحسناء فطلَبَتْ منه أن يساعدها بتعبئةِ معلومات ما في دائرةٍ حكومية، فطلبَ قلمَك وغادر به دون أن يعيده إليك.

كادَ_ صدقني_ أن يعيده لكنه التفتَ بعجالةٍ باحثًا عنك فلم يجدك، وكادت هي أن تغادر وما بين وجهها المشرق وبين إعادة الأمانة لأهلها اختار وجهها حاملًا وزرَ الأمانةِ بقلبٍ آثم.

لعلك لا تعلم قسوةَ الألم في الروحِ إن غادرت حسناءُ مكانًا دون أن يعرف مَن ساعدها أيَّ مكانٍ ستقصده بعد ذلك.

عليكَ أن تتحدث...

سر بجانب أيِّ عابرٍ وحدثه عن نفسك، اجلس كما جلسَ الغرباءُ

بجانبك دونما استئذان وحدثهم عن أحلامك الضائعات، عن أيامك السوداء، عن لونك المفضل، عن قطتك (ريمي) .

أعلمُ أنك لا تملك قطة بل وتكره الحيوانات والطيور جدًا، لكنهم لا يعلمون هذا .

لا أحد يعلمُ عنك إلا ما أردت له أن يعلمه؛ ولا أحد يصدق إلا ما أراد هو تصديقه.

لستَ مقنعًا... والآخرون كذلك.

قد ورثنا عشق الجدلِ والتشعيبِ وما زلنا نرفض ذلك، وما زلنا نقلِّدُ ما لا نقتنعُ به، ونفعلُ ما نرفضه، ونقوم بما نكره فعله.

كم حوارٍ قلتَ في نصفهِ أو آخره: أقنعتني؟

كم فكرةٍ غيَّرت حياتك مذ عرفتَ بأنك تملكُ آليةَ التفكير؟

بإمكانك دعوةَ الجميع لأمسيةٍ شعرية... لماذا شعرية تحديدًا؟ أصبح الأمر مملًا حد القرف.

ادعُهم لأمسيةٍ قصصية، ثم اقرأ لهم رثائية (مالك بن الريب).

كن عابرًا حينها مرةً أخرى، فهم لن يتذكروك إلا إذا أرادوا ذلك، ونحن لا نريد إلا ما أراده لنا الأقوى، ولستَ الأقوى لتريد.

كن عابرًا في علاقةٍ امتدت لسنوات وسنوات.

رحتَ تحدثها عن عائلتك، عن أسرار وجهك وصوتك، عن عالمك الضيق، عن الطريق الطويل الذي سلكته، عن البيت الذي هدموه

خوفًا من الزلازل؛ رغم أنه الوحيد الذي نجا من الزلزال الأخير الذي دمَّر أقرانه.

قرأت لها القصيدةَ تلو القصيدة، غنيت لها، ثم عزفتَ على العود بمهارةٍ غريبة.

سأَلتكَ فأجبت.

طلَبتكَ فلبيت.

بكت فرحتَ تمسح عن عينيها بعينيك دموعها.

رحتَ تحدثها عن لغةِ الورد التي لا يتقنها الكثيرُ من الناس.

: انظري... هذه ورة نائمة، وهذه صورتُها دون أن تنتبه، وهذه تشعرُ بالبرد، وهذه تبكي وتلك تبتسم، أما هذه فقد تيتَّمت حديثًا، وهذه زُفت عروسًا منذ وقتٍ قصير، وهذه كما هو واضحٌ تقول: (تشيز) للكاميرا.

كن عابرًا مرةً أخرى؛ فلقد جَلَسَت بجانب الآخر وطَلَبَت إليه أن يحدثها عن نظرية النسبية، وقبل أن يودعها طبع على جبينها قبلةً حامية الوطيس، وقال لها لتسمعَ أنتَ لا غيرك: (لا يكشفُ الغمَّاء إلا ابن حرةٍ... يرى غمراتِ الموتِ ثم يزورُها).

أمَّا الجالسةُ في المقهى وحيدة فأنت تعرفها.

تعرفك هي الأخرى جيدًا... اجلس وحدثها مثلا عن (فيروز) .

تظاهر بأنك تحب صوتها وأغانيها.

تفلسف قليلًا فأنت تتقن فلسفاتهم الحديثة.
خذ الكتاب من يدها، وامتدح إنسانية صاحبه، ثم امتدح جميع أعماله، ثم اضحك على أي نكتةٍ سخيفة ستقولها... كن سخيفًا عابرًا لمرةٍ واحدة لندركَ من أين تؤكل الكتف يا صديقي.
لقد شرحتَ نفسك وشرَّحت ذاتك بالكامل له.
لقد ثرثرتَ بكل ما تملك وما لديك وما تحمل وما نسيت وما تذكر.
لقد أعدتَ وكررت وأطنبتَ وأوجزت.
كن عابرًا.
كن. فلقد أهداك بعد كلِّ هذا قطةً رغمَ كراهيتك للقطط.
قال في رسالته: (صديقي العزيز، من الإنسانية أن يشعر الفرد منا بمشاعر قطةٍ مسكينة لم تر أبويها) .
هو مَن صفقَ لك عندما سمِعك لأول مرة.
هو من طلب منك بأن تكرر وتعيدَ منتشيًا بك.
وهو من نظرَ إليك بعدها كعابرٍ يومَ صفقَ للجميع وجَحَدَك.
أما هي فقالت وقد قلتَ لها ما قلتَه له: سأهديكَ إذن زجاجةَ عطرٍ فاخرة.
- أريدُ علبة تبغ فقط.
* العطر باريسيٍ فاخر.
- علبة تبغ فقط.

❋ إنه ماركة مسجلة.

- أريد علبة تبغٍ فقط.

❋ الدخان مضر.

- أريد علبة تبغ فقط.

❋ العطر هذا لا يُعوض.

- تبغٍ فقط

وبعدٍ ساعتين...

وبعد سنتين...

وبعد أن تعِبَت وأتعبتكَ أهدتك زجاجة عطرٍ فاخرة وأهدت له؛ للعابرِ الذي أراد زجاجة عطرٍ فاخرةٍ علبةَ تبغٍ فقط.

كن عابرًا فلربما فهمَ العابرون ما أردت .

جنون

لا يقرأُ الحزنُ بين السّطور كما زعمت (عينيّة ابن زريق)، لكنّه لم يتحدث حينها بهذه الّصيغة، فكأنّني قرأتها بين السّطور فوضعتُها هنا، وقد خطَّه لتلك التي تركها خلفه يومًا ومضى لنعشه. أتراها تزوجّت وكان مهرها القصيدة؟ أتراها أجلستهُ على مقعده؟ وألبسته ثيابَه وسمحت له أن يفترشَ فراشه؟

خائنةٌ إن فعلت ذلك، ووحيدةٌ إن لم تفعل، فكيف نلجُ إلى السّعادة بالخيانة؟ وكيف نلجُ إلى الوفاء من أبواب الوحدة؟

(لي تلك الصّبوة وليس لي ذاك الإقدام)، لذلك أجلسُ تحت مظلّةِ الرّاحلين، وألبسُ رداء (هارون الرشيد)، وأطلق حُكمًا بقتل (البرامكةِ) ومصادرةِ قلوبهم، ثم أقف أمام العرش لأشتَمّ رائحة عطرهم، فمن هنا رحلوا، وهنا جلسوا، وهنا ضحكوا حين خانهم البكاء؛ وتراني أتلصّص على (ليلى العامريّة) وقد شربوا نخبَ زواجها من (جان جاك روسو) وأشهد عقد النّكاح الباطل، حيث الشّهود سبعة والحضور سبعة والمأذون قاتلُ مأجور.

وترفضني السّائلة عن العشق، وتطلب حجرًا كُنهه الماء، وكلّما ضحكتُ انفطرت لشيطانةٍ وملاك، وكلّما حدثتُ نفسي بعجيبِ ما أرى تذكّرتُ الوردةَ بين مخلّفات الكون، وتلك الأشواك في دمها، وذاك الحجر المضيء، فيبدو المحالُ بسيطًا، ويبدو الجمالُ انفطارًا، وأبدو الثبات برغمِ الزّلازل التي تعتريني.

وبالقربِ من حافّةِ الانتحار يمارسُ ذاك البوذيّ طقوسه الجميلة، يتأمّل الوجود كمن يراه لأوّل مرّة، فهل دفعه الحزن لذلك؟ أيحزنُ من له الدّنيا ونحن نتصارع عليها ومن أجلها؟!

كيفَ هذا وقد تنسّكَ تحتَ سياط البرد؟ ثم قطع (الصّين) من أقصاها لأقصاها سجدةً وخطوة! وقبلَ أن يصلَ بكى. أبكاني حينها، فرِحتُ لوصولهِ النّقطةَ الأخيرة المشتهاة، تألّمتُ لهذا الوفاء العجيب، ووددت أن يراهُ ذاك الميت الذي حجَّ للمعبدِ نيابةً عنه، وعندما استدرتُ همست بألمٍ كأنّني أرفضُ أن يستمعَ لي الشّيطان حينها: (ألا يدرك هذا أن الآلهة التي يعبدها ماتت منذ زمنٍ بعيد).

أهو القانون الذي يرفضُ الأشياء داخلي؟

وهل هربتُ لنفسي لألجأ من سؤالٍ حاصر عقلي؟

ولكن الدّبَّ الملك حينما استيقظ من سباته خانتهُ مباشرةً تلك التي طلبت وداده، حاول كثيرًا معها ورفضته، وحاولَ وحاول قبيلَ أن يستخلصها (المسيطر) لنفسه وقد جَدَتهُ فتيًّا، وعندما وصلَ إلى القمّة التي اعتادها من سنين هُزمَ عليها، وانحدر إلى الدّببة الكلاب، لم يطعنوه كما يفعل البشر، ولا التهموه كسمكةِ (سلمون) شاخت مسافرةً عكسَ التّيار، لكنّهم أهانوه، بعد أن أصبح عبدًا لشيخوخته رغم أنف شبابه.

وها أنا أموتُ الآن كما ماتَ ابن زريق وحيدًا، وقد أنّب نفسَه

ولامَها، (وتأنيب الضّمير شيءٌ لا يستحقّ التّقدير) ولكنّه يقدَّرُ بحزنهِ ولا أقدَّرُ بحزني، فأيّ عالمٍ هذا من يقدِّرُ الأنسانَ لحزنه؟ وأيُّ عالمٍ هذا الذي لا يقدِّرُ الإنسانَ لحزنه أيضًا؟

السّارق

لم يدرِ كيفَ أجلسَه وقد حُقَّ له الوقوف صاغرًا؟! أو لماذا قدَّم له لفافة تبغ بدل القيود في معصميه؟! ويدري كما أدري أنّه كان على وشك أن يشعلها له! فإن أنكرَ ذلك أمامكم، فلن ينكرَه أمام نفسه.

: (ابتسمَ... ثم غادر بهدوء) هذه الجملةُ الموسيقيّة التي اختتم بها الجميع حديثهم. الجملة التي شكَّلت صورةَ القادمِ بأذهاننا بوسامةٍ فريدة، وقوامٍ متناسق، مع رائحةِ عطرٍ فرنسيٍّ اشتممناها قبل حضوره.

المرأة أقسمت بأنّه جلسَ بجانبها فجأةً، فتحَ حقيبتها، تناول سلسلة ذهبيّة وجوالها وورقةً من فئةِ العشرينِ من رزمةٍ ماليّة موبخًا إيَّاها على حمل هذا المبلغ الكبير الذي قد يُعرضها للسّرقة وجشع السارقين، وبعد أن طبعَ على خدّها قبلةً سريعة أمامَ دهشتها وصديقاتها في المقهى؛ ابتسمَ... ثم غادرَ بهدوء.

رفضَ فنجانَيْ قهوةٍ قبل قبوله الثّالث على مضض، شارحًا طريقته الخاصّة بصنعِها، وكيف أنّ الرّجلَ يتفوّق على المرأة بتحضيرها؟ ثمّ السّماح للشّفاه العطشى بمضاجعتها.

وكم بدت جملته الأخيرة مقزّزة؟ لا سيّما وأنّها خرجت عبرَ أسنانٍ صفراء، وشفةٍ غليظة! ورغم أنّه لم يكن مُقنعًا، خاصّةً بهذا القصر، والكرشِ المتهدّل الذي نسفَ صورته التي رسمناها له في خيالنا قبل

حضوره، إلا أنّنا استمعنا له دون مقاطعة، محدِّقين بين الفينة والفينة بصلعته الغريبة.

حارسُ الملهى الليليّ مثلًا شرح كيفيّة دخوله للملهى ببنطاله الأحمر وسترته الصّفراء، ورائحته الأشبه... الأشبه... أل أشبه... صمت طويلًا قبل أن يجد الجملة الضّائعة، ثم وجدها فقال سريعًا: الأشبه بسنجابٍ بريّ... نعم، الأشبه بسنجاب بريّ، هي هذه.

- وكيفَ هي رائحة السنجاب البري؟

* لا أعرف حقيقةً، حتّى إنني لم أر سنجابًا بريًّا طيلةَ حياتي. لعلكم ستسخرون منه! لكنّني وصفتُ رائحته أيضًا لزوجتي بهذا الوصف تحديدًا، رغم أنّني لا أعرف إن كان السّنجابُ حيوانًا أليفًا أو مفترسًا، فقد بدَّدت رائحته التي لا تشبه شيئًا رائحةَ العطر الفرنسيّ بأذهاننا.

* ثم أخذَ بيدِ الفتاة التي لم تعد لمنزلها، وملهاها حتّى هذه اللحظة وابتسمَ... ثم غادرَ بهدوء. (هذا ما اختتم به صاحب الملهى حديثه).

أكثرهم غضبًا وتوعدًا، هو ذاته مَن صمت كطفلٍ وديع حالما أحضرناه، بل لعلَّ صوته اختفى في قرارةِ حنجرته رافضًا الصّعود لمقاطعته حينما تحدَّث نيابةً عنه غير مبالٍ بالعقاب: دخلتُ لأشتري علبةَ سجائر، فوجدته يضع رزمةَ نقودٍ بجيبه، فأخذتها ورحلت، هذا كلُّ ما في الأمر يا سادة.

وجههُ لا لسانه من قال لنا؛ بأنّه ابتسمَ... ثم غادرَ بهدوء.
لم تتأخر فتاةُ الليل والتي أصرَّ أن نحضرَ لها القهوةَ بكأسِ ماءٍ كبيرة، معللًا أنّها تكره شكلَ الفنجان، وعلى المُضيفِ أن يحترم رغبةَ الضّيفِ وذائقته القَهَويَّة.
= هل سمعتم هذا المصطلح من قبل؟ عن نفسي لم أسمع به، ولم أقرأ عنه رغم الهجوم الكاسح الغاشم من قبل الشّعراء والأدباء على وصفِ القهوة، وطقوسها الباريسيّة، وشرفاتها المطلةِّ على الزّنابقِ القرمزيّة، وكأنّ لا شعرَ بلا قهوةٍ، ولا قهوة بلا شعر. ولم يذهلني، بل أذهلنا جميعًا حينما قال مُعيدًا فنجانه: ولا تنسَ صوت (فيروز) الذي يجب حشره وإقحامه بقرفٍ في كلّ قصيدة، وخاطرة، وومضة. لنعد إليها عمومًا وقد ارتسمَ الحياءُ على محيَّاها وهي تتحدّث عنه، سامحةً له أن يرتشف من قهوتها قائلةً: هل من الممكن أن تتحدّث الأنثى عن اللاممكن؟ الجسدُ يا سادتي ليس كما تراه العينان، بل كما تراه... تراه... تراه... صمتت للبحث عن تلك الجملة الضّائعة.
- الروح؟
* كلا.
- السناجب؟
* كلا، لنقل كما تراه الرّغبة... هذا ما لديّ فقط، لكنّني في الحقيقة لم أغضب رغم أنّه أخذ ما أخذ، وتركَ ما ترك فقد ابتسمَ بعد كلٍّ

هذا... وغادر بهدوء.

قبل أن يغادرَ متناولًا عن المشجب معطفًا لرجلٍ طويل سأله المحقق: ما الذي دفعكَ لهذا؟ فتجاهله مَوجِّها حديثه لي قبل أن ينزعَ ساعتي من معصمي، ناظرًا إليها بتأنّق وقد طوَّقت معصمَه. قل له: لأنّه لم يكن يمتلكُ مسدّسًا حينها.

وابتسمَ لي، ولنا... ثم غادرَ بهدوء.

القَادِم

ما إن دخلتُ حتّى ضحكتُ بكلِّ ما أوتيتُ من حزنٍ، حيثُ لم أعد أعرف إن كنتُ مَن دخلَ الخمَّارةَ أم (مهران). حككت رأسي كالأبله لحظةَ تأكّدي أنّني لم أعد أعرف رأسي من قدميه، أو رأسهُ من قدمي. قد يبدو هذا مزعجًا بل هو مزعجٌ حقًا، لكنّه ليس أكثر إزعاجًا مما حدثتُ به نفسي يومًا لتنقلبَ حياتي بعدها دون أن أدري رأسًا على عقب: (إنهُ مختلف... كيف... ولماذا؟!... لا أعرف)

استحضرتُ مباشرةً صورةَ وجههِ من ذاكرتي الحديثة؛ صورةً لم أعرْها اهتمامًا أثناء مروره السّريع أمامنا متزامنة مع إيقاعِ صوتِ صديقي الذي أشارَ نحوه بحماسةٍ بلهاء، أو لعلّني ظننتها آنذاك بلهاء: (هذا هو... انظر... إنّه هو... هو بعينه). ثم باندفاع مبالغٍ فيه وقد تشبّث بكتفيَّ راح يصفُه بمتعة غريبة وسعادةٍ غامرة: (واحدة من اثنتين: إمَّا أن يكونَ من عِليةِ القوم وسادتهم، أو أنّ جهةً عظمى تقفُ خلفه لا محالة! بالتّأكيد لن تصدقني فأنتَ لم تشاهد كيف تحدَّثَ حينها، ولم تشاهد ما شاهدناه من تصرفاتهِ الغريبة).

قال لي صديقي بأنهم شاهدوا مُذنبًا يدعى (مهران) كان على وشكِ أن يضعَ القاضي الماثلَ أمامَه في السّجنِ، بعد وصلةٍ خطابيّة تناول فيها ما لذَّ له وطابَ من حكمٍ ومواعظِ العرب، قبل أن يقبّلَ القاضي رأسَه ويعتذرَ له بأدبٍ جم ويرافقه إلى خارج المحكمة احترامًا له؛

وسط زفَّةٍ من عبارات الاعتذار والتودد لمثولهِ أمامَه.
أمَّا أنا فقد رأيته يومَ انقادَ الجميعُ له بعدما ألقى جملةً قصيرةً تلقَّفت قلوبهم وعقولَهم، ليقودَهم نحو مكتب الوزير الذي أقسمَ عليه أن يهدأ قاطعًا له الوعودَ بتحسينِ دور الوزارة ومضاعفة جهودها في خدمة مواطني الجمهوريّة مهما كلّفه الأمر.
لم تنفرج أساريرُ وجهِه إلا بعد أن خرجَ آخرُ مواطنٍ راضيًا عن الخدمة التي قُدّمت له؛ لذا وجدت نفسي أتبعُ (مهرانَ) دونَ أن يشعر إلى حيث لا أدري مصابًا بالذّهول بعدما توقّفَ أمامَ خمَّارةٍ لم يتردّد بالدّخول إليها وقضاءِ نصف ساعةٍ داخلها؛ قبل أن يخرجَ وصاحبَ الخمّارة ويسيران بين أزقّةِ المدينة قاصدين مسجدها.
- المسجد؟ (سألني مهران ووجههُ قد غرقَ بالدّهشةِ بالكامل رغمًا عنه).
* بل ورأيتُ بأمِّ عيني صاحبَ الخمّارة راكعًا ساجدًا إلى جانبِكَ، والخشوعُ يتقاطرُ من هالتهِ كما يتقاطرُ ماءُ الوضوء من جبهته، وصديقي مَن قال لي إنّك قد جذبتَ رجلينِ من قميصهما آمرًا عائليتهما اللتين استعدتا للشّجار بالمصالحةِ، وتقبيل الرّؤوس بدل الأيادي التي كانت على وشك الاشتباك، حتى أنّ أحد المسنّين حاولَ تقبيلَ يدك قبل أن تسحبها رافضًا هذا التّصرف منه.
- تقبيل يدي؟! (مندهشًا مرّة أخرى).

* وقالَ صديقي لي أيضًا أنكَ لو لم تمنعْهُ لقبَّل الجميعُ يدَك حينها لا المسنّ فقط... هكذا أخبرني!

- هل حدَث هذا أثناء ملاحقتك لي؟

* نعم.

اكتظَّ دفترُ مذكّراتي يومًا بعد يوم أيضًا بقصص ألف ليلةٍ وليلة، حيث لم يخلُ يومٌ خلال شهرين متتابعين من قصّةٍ أو موقفٍ غريب بطله هذا الرّجل الذي لم أعد أقوى على مفارقته منذ التقيته، أو لأقل: مذ أشار إليهِ وعليه صديقي.

- هذا دفتر مذكراتك؟! (سألني بعد أن أشارَ به إلي).

* لم يغادر حركةً منكَ وإلا ووصفَها؟

- هذا واضح.

* لا بدّ أنك مشعوذ، قل لي هل تتعامل مع الجان؟

- بقي أن تتّهمني أنّني (تبريزي) هذ العصر؟

* ممكن.

لو كان باستطاعتي سماع أحاديثه الجانبيّة والسّريّة مع النّاس الذين أصرَّ على مناجاتهم وحده دوني (لتَبرَزتُهُ) رغمًا عنه؛ لا سيما وأنّني الشاهدُ على وجههِ الطّلق، ومحيّاه المبتسم أثناء تبادلهِ الحديث الهادئ النّاعم مع السّكارى والرّاقصات وأصحاب السّوابق... الأسلوب ذاته اتبعَهُ مع رجال الدّين، وطلّاب العلم، ووجهاء المَدينة.

- الأستاذ مهران موجود؟ (جاءني هذا السؤال بعد أن فتحتُ باب شقته للطارق الذي بدا أضخم من أن يدخل منه).

حككت رأسي لأنّني في الحقيقة لم أعد أعرف رأسي من قدميه، أو رأسهُ من قدمي ثمّ ضحكت قائلًا: أستاذ... سيد... مشعوذ... ساحر... بطيخ... لا أعرف.

- موجود؟

* نعم موجود.

- السّيدة (نيران) تريد مقابلته فهل يسمح؟

أجابهُ صوتٌ من بعيد: نقابلُها بالطّبع، أهلا وسهلًا بها.

لم أصدّق عيني وأنا أرى كوبَ الشّاي في يد ممثلةِ الإغراء الأولى في العالم وقد جلست في بيت (مهران)؛ فقد كنتُ أظنّ أنّ نوعيّة هؤلاء البشر لا يشربون الشّاي مثلنا، سيّما أنّ رائحة العطر التي لم تفارق أنفي لما يقارب الشّهر ذكرتني على الدّوام بأنّها تختلف بالكامل عن النّساء اللائي نقابلهن في محطّاتِ حياتنا البائسة.

- وما الذي جعلك تفكّر بهذه الطّريقة؟ (بدا مُبتسمًا حينها).

* أشعر بأنّهم مختلفون عنّا.

- عن البسطاء تقصد؟

* حتى المشاهير فهناك من تشعر بأنّه قريب منك.

- صحيح..

* لماذا؟

- لأنّك أردت أن تراهم بهذه الطّريقة.

* كلا، إنَّهم يضيئون في الليلةِ الظّلماء.

- عيناك مَن صدَّقت وهمَ الضّوء ذاك فأشهرُهن من قالت يومًا: لم أكن سوى مرحاضٍ للرّجال لتفريغِ شهواتهم مقابلَ الشّهرة اللعينة التي تحصَّلتُ عليها.

* ممكن...

أمّا (نيران) فوضَّحَت بعد مقدمةٍ طويلة أنّ أحد أصدقائها نصَحها باللجوء إليه بعد تعرضها لعملية نصبٍ على يدِ منتج فيلمها الأخير؛ والذي اشترط عليها المال مقابل الجسد إن أصرَّت على أتعابها ولا بد.

: (لا تبعثنَ إلى ربيعة غيرها... إن الحديدَ بغيره لا يفلحُ) هذا ما قاله السكرتير بعدما وقفَ المنتج بين يدي مهران معتذرًا عما بدر منه، مقدّمًا له شيكًا بالمبلغ كاملًا بينما غزت الحيرةُ وجهَ السّكرتير على دفعات؛ والذي كلّما دخل وخرج من عندهما ضرب كفَّيه ووضعهما على رأسه محدّقًا بي هامسًا بأذني: (خمسة أعوام بالتّمام والكمال ولم أرَ مُعلّمي بهذا الضّعف واللطف الطّفولي، مَن هذا الرّجل يا رجل أخبرني؟ قل لي: هل هو من رجالات الدّولة الكبار؟ كلا لا أظن فهيئته لا توحي بذلك !).

وتركناه في حيرتهِ ومضينا بعد أن استلمَ مبلغًا ماليًا كمكافأة من (نيران) ليصطحبني بعدها معه لتوزيع المالِ على من هبَّ ودبّ. ظلَّ ينفق مما أعطته وينفق حتى أجهز عليه وعلى البركة التي حلَّت به.

= لا تقل لي أنه تصدَّق على السّكارى ببعضه... (سألني صديقي غيرَ مصدِّق ما يسمعه).

* والمومسات أيضًا، تسألني كأنك لا تعرفُ طباعه.

= ألأن مصدر المال مشبوه فعل ذلك؟

* لا ففي كلّ المرات التي تحصَّل فيها على مالٍ فعل هذا.

تصدرت صورة (نيران) بثياب الإحرام نشرات الأخبار المهمّة وصفحات الجرائد الأولى، وقد أحاطت بها _أيّ الصّورة_ مجموعة من الأسئلة حول الانقلاب الأخلاقيّ الدّينيّ المفاجئ لهذه الممثلة الجريئة.

- هل هي فعلا كما يصفونها؟ (سألني بعد انتهائه من تبذيره للمال).

* وأكثر، إن لها بعض المشاهد...

- لا تكمل، يكفي، غفر الله لنا ولها... هذه الكنيسة تحفة معماريّة، تعال لنشاهدها من الدّاخل.

* حاضر.

لو لم أكن أعرفه لظننتهُ مجنونًا بعد السّاعتين اللتين أهدرهما مع أحد

أشهر مجانين مدينتنا فورَ خروجنا من الكنيسة؛ وقد جلسا وتحدثا كصديقين بانسجام غريب بعد أن أمرني بالابتعاد عنهما؛ رغم أنّ رائحةَ المجنون وشكلهِ المقزّز كفيلان بابتعادي عنهما مسافةَ اللا نداء.

= هل زارَكَ مجنونان هنا يومًا، أو شاهدت اثنينِ منهما يتحدثان مع بعضهما؟ (سألني صديقي بخبث).

* لا، وأستبعد أن يحدث هذا.

= وماذا لو حدث هذا؟

* أعتقد أنّهما سيتكلمان بلغةٍ لا يفهمها العقلاء.

= أو قد نكون نحن المجانين من وجهةِ نظرهم.

* وهل هناك عاقلٌ يفسدُ فيها ويسفك الدّماء؟

- إذن لن نفهمَ لغةً غير لغتنا.

* ممكن.

= أكان مهران هذا بطينًا قصيرًا؟.

* لقد وصفتهُ لك مرارًا.

= وأصلعًا وذا بشرةٍ داكنة مليئة بالبثور؟ (سألني متجاهلًا جوابي).

* مممم.

= أمَّا صوته فكان مزعجًا حدّ الغرابة.

لم أصف شكله احترامًا لمكانته كما أراه في دفترِ مذكراتي، سيما أنني

ورغم ملامحهِ الغريبة كنت أراه وسيمًا وجذَّابًا.

- في هذه الصّفحة ذكرْتَ أنّه قابل رئيس الجمهوريّة وانتقده بشكلٍ لاذع.

* كم أكره هذا، عدتَ لتتكلم بضمير الغائب!

- أعتذر، ذكرتَ في هذه الصّفحة أنّني قابلتُ رئيسَ الجمهوريّة والخ الخ الخ. (وراح يقلب بعدها دفتر مذكراتي بين يديه بعناية واهتمام).

لم أجبه لأنّه يعلمُ بأن المرأةَ الفقيرة مَن كانت سببًا بهذا بعد أن حاول المشفى طردها؛ وبعدَ أن تبيّنَ لهم أنّها وزوجها لا يملكان المال الكافي لأتعابِ العمليّة، وكالعادة ما إن صاحَ بالأطباء والمحاسبين حتّى سارع الطّبيب قبل الممرض بنقلها لغرفة العمليّات وإجراء اللازم.

= هل أسموه (مهران)؟ (سألني صديقي متوقّعًا الجواب).

* أنجبت فتاة ومع ذلك أسموها (مهرانة).

= لو كنتُ مكانهم لفعلتُ الشّيء ذاته.

رغم وابل الأدعية والمديح التي أطلقتها أسرَّةُ المرضى لا سيما تلك المرأة النّفاس وزوجها؛ إلا أنه لم يبتسم بل طلب منّي القيادة بأقصى سرعة نحو (قصر الرئاسةِ) متمتمًا بكلماتٍ ظننتها للوهلةِ الأولى الطّلاسم التي تساعده لا محالة على قدراته العجيبة؛ لولا بعض

الشّتائم الوقحةِ التي تسرّبت من صوته الخفيض كي أدركَ حينها أنني أبعدت النجع كثيرًا.

- قل له (مهران) يريد مقابلتك فورًا ولا تثر غضبي. (صرخَ بها بوجهِ أحد الحرَّاس على بوابةِ القصر).

رأيتُ جميع الألوان التي في الكون لحظتها على وجوه الحرس، بل وسمعتُ دقّاتِ قلوبهم بشكل أوضح بكثيرٍ من همساتهم؛ التي أزَّت بشكلٍ متصاعد قبل أن يقطعها صوتُ عجلاتِ السّيارةِ التي أقلَّتنا إلى حيث وجدنا (الرئيس) واقفًا بانتظارنا.

= لا تقل بأنهم فرشوا له السجاد الأحمر. (قالها صديقي كمن لا يصدق حديثي).

* لا، لكنه استقبله استقبال الملوك والفاتحين .

= هذا من أصحاب الخطوة لا محالة.

* سيغضب وبشدّة لو سمعها منك، فإيّاك أن تذكر ذلك حينما تراه؛ بل تعامل معه بشكلٍ طبيعيّ خاصّة وأنهُ يعرف أنكَ من عرفتني عليه.

= كم أتشوّق لهذا حقيقة؟! أخيرًا سأرى مَن لم أعره الاهتمام الكافي يوم فعل ما فعل، لكنك لم تقل لي سبب انزعاجهِ من المدح.

* لا يراه مدحًا فقد نهرَ أحدهُم يومًا قائلًا: أنا لست خنثى ولا خصيًّا فأنا أشتهي النّساء وأعشق أجسادهنّ، ثمّ إنه من المحالِ أن أرقص

وأبدأ بالدّوران كالمجانين وأنفض جسدي كالمجاذيب باسم الدّين.
ساعةٌ أو ربّما أكثر هي المدّة التي استمع فيها (الرّئيس) له طالبًا من مساعديه بين الفينة والفينة تسجيل بعض الملاحظات باهتمام بالغ، بينما ارتعدت أوصالي حينها من الهالة التي أحاطت (بالرّئيس) ومعاونيه لا سيما وأن نَعلي الذي لا يساوي عشرة دنانير؛ وبكلّ وقاحة داسَ ذلك السّجاد الفارسيّ الفاخر كما يدوس رصيفَ حارتنا الحقير؛ بيد أن (مهران) مذ جلسَ وغادر ولهجته لم تتغير، ولم تذب من على لسانه ثقته المعتادة بل أخاله شحذ لسانه واستله هذه المرة بشكل مختلف.

- لم تحلم أن تلتقي به يومًا. (قالها مقلِّبًا بعض الصّفحات بين يديه).

* (نيكول كيدمان) أقرب لحلمنا من هذا المحال.

- في هذه الصّفحة ذكرت أنّ الرّئيس سألَ عن اسمك.

* وضحِك حتى بانت نواجذه حين عرف أن اسمي (واثق).

اسمي هذا بالتّأكيد ليس مضحكًا، ولا أظنّه من غريب الأسماء التي أدهشت الرّئيس حينها، مع أننا لم نفهم يومًا ما الذي يضحك الرّؤساء ويغضبهم، وما الحدث الذي يثيرهم أو يخمد عواطفهم، فقد تعودنا أن نراهم ونسمعهم بأعينٍ وآذان لا نستخدمها مع غيرهم.

= الحقيقة أنّ هذا _ ولا أدري لماذا_ يذكرني بقصّةٍ (صاحب

الشّرطة والكاهن والقاضي) بعد أن أفنوا شبابهم لإصلاح مجتمع المدينة الذي انتشر فيه الفساد بجميع أشكاله. (وجَّه مهران كلامه لصديقي دونَ أن يعلما أنّني أتجسّسُ عليهما).

- أما صاحب الشّرطة فوظيفته القبض على الأشرار، وتقديمهم للعدالة. (أكمل صديقي ما بدأ به مهران).

= أوَ تعرفُ القّصة أيضًا؟

- بالتّأكيد فالكاهنُ كرَّس حياته للتّبشير ودعوة النّاس للتّحلي بمكارم الأخلاق والتّراحم فيما بينهم.

= نعم، والقاضي جلسَ للَقضاء ليحكم بين النّاس بالعدل ناصرًا المظلوم. معاقبًا الظّالم رادًّا الحقوق إلى أهلها.

- يبدو أنّ (مهران) آخر زارهم في ذلك الوقت فتأثّرت به المدينة بأكملها، وانتشرت الفضيلة.

= وعمَّ الأمن والأمان أرجاءها، والتزم النّاس بالفضيلة.

- أظنّه استغرقَ سنة واحدةً للقيام بهذه المعجزة؟

= بل أقل.. لكنّهم _ أي الثّلاثة_ قاموا بطرده بعد تهديدهم الجاد بقتلهِ ما إن جنَّ وعاد مجددًا للمدينة، في الوقت الذي أوعز فيه صاحب الشّرطة لأحدهم بإحضار راقصةٍ هيفاء غيداء لإحياء ليالٍ حمراء وسط المدينة.

- الفساد يبدأ بنظرة.

= بالطّبع انتشر الفساد مرّةً أخرى في تلك المدينة ليعود صاحب الشّرطة ويلاحق الأشرار ويقدّمهم للعدالة، بينما راح القاضي يحكم بالعدل، تاركًا للكاهن دوره بالتّبشير ودعوة الناس مجددًا لمكارم الأخلاق والتّراحم فيما بينهم.

بعدها أو قبلها لستُ أذكر كنتُ أتساءل بحرقةٍ هل قتلوه؟ أين صديقي (مهران)؟ الأرض لا تبتلعُ الأشخاص فجأةً بل تأكلهم ببطْءٍ شديد، أمّا هو فعليها أن تضعَ علامةً ترشدُ النّاس إلى مكانه إن قامت بهذه الخطيئة والتهمته؛ لكنّني لن أستطيع تقبّل هذا فكيف لي أن أحيا بدونه؟ ثم كيف سيكون شكل الشّوارع والأماكن إن لم يعد؟

= ألا زلت بانتظاره؟ (سألني صديقي والشّفقة تلوحُ في عينيه قبل صوته).

* بالتّأكيد، ولا تقل لي_أرجوك_ عد لحياتك؛ لا أستطيع.

= شهران وثلاثة أيّام ولا زلت.

* لا تكمل، (مهران) سيعود.

= قلتَ لي إنّه قالَ لي يومًا: أحدهم انتظرَ حبيبته طويلًا ولكنّ النّادل بعد الفنجان العاشر طلب إليه أن يرحل كي يغلقَ مقهاه.

* قل لي أنّها عادت.

= قد نتأخر نصف ساعة، ساعة، ساعتين، ولكنّ علينا أن ندرك بعد

ذلك أنّ الغائب لن يأتي، سيّما بعد الفنجان العاشر.

* سيأتي.

= أوافقك على هذا فقط طالما كان الغائب يعيش في داخلنا فقط وينتظر لحظة البعث.

* سأنتظره.. لن يكون (هاشتيكو) أوفى لصاحبه منّي.

= لكن صاحبه لم يعد.

لم يمت لكنه لم يعد بعد، بيد أنّ الذي يغيظني قبل أن يحيرني هو كيف استطاع النّاس نسيانه بهذه السّهولة؟ بل لسببٍ أجهلهُ راح الجميع يتنصّل من معرفته؛ البارحة دخلتُ الخمّارة فطردني صاحبها بعد أن اتهمني بالجنون. أنكرَ كلَّ شيء حتى صلاته اليتيمة في المسجد، والبارحةُ أيضًا رأيتُ صورةً كبيرةً ل (نيران) بملابس السّياحة على غلافِ مجلة ما.

لا أدري كيف عاد الأشخاص بهذه السّهولةِ إلى ما كانوا عليه، ولا أدري لماذا أنكرَ الجميع معرفتهم بمهران فجأة؟

أسئلةٌ راحت تتوالى على لساني بغضب قبل أن أراه يسير على الرصيف المقابل أمامي ركضت باتّجاهه مناديًا عليه بصوتٍ تفوق قوّته كلَّ ضجيج الجمهوريّة التي التفتت لمصدره واتّجهت نحوه، صوت تشابكت فيه الدّموع مع الدّهشة مع الفرحة مع الغصّة مع أي شيءٍ لا أعرفه... عانقته... درتُ به... حضنته بعد أن تفحّصت

وجهه مئات المرّات. لم أكترث بمن تجمّع ومن انفضّ، لم أكترث بالهواتف التي بدأت تسجّل حركاتي البهلوانيّة، وقفزي أمامه وخلفه بفرح، لم أكترث وهم يسجّلون مقطعًا تتحدّث فيه دموعي وضحكاتي الهستيريّة عن شوقي (لمهران).

- اجلس.

* أين كنت؟

- أبحث عنك.

* لكنّك من غادر.

- هل أنت متأكّد؟

* بالطّبع... لا يهم ولكن عليك ألا تساعد النّاس مرةً أخرى.

- لماذا؟

* لا يستحقّون، أنت لا تعلم ما أحدثوه بعدك، جميعهم دون استثناء تنكّروا لك ونسوك.

الجماهير التي نزلت إلى الشّارع عقبَ مباراة كرة قدم وأجهزت على آخر بحّةٍ في صوتها هاتفةً: انتصرنا... لقد انتصرنا؛ استوقَفَت ذاك العالم الجليل فسأل أحدهم: ما سبب هذه الفرحة العامرة والأصوات المجنونة؟ هل دخلنا حربًا وانتصرنا بها؟ خصّص بعدها خطبة الجمعة للحديث عن النّصر الذي حققته الجمهوريّة على فريق أعجميّ، ثم أسهب بالحديث عن النّصر والفرحة والحماس الذي

استمعَ إليه من أصوات الجماهير الغفيرة.
= أتذكّر هذه الحادثة فقد ذكر أنّ هذه الفرحة بالفوز تدلّ على تعطُّشِ الشّعوب العربيّة للنّصر؛ واشتياقها له بعد كمّ الهزائم والنّكسات التي مررنا بها، حتى وإن كان هذا النّصر نصرًا زائفًا (قالها صديقي لمهران لتغيير مسار الحديث ليس إلا).
- نعم، هي صناعة البطل بغضّ النّظرعن استحقاقه للأمر أو لا.
= والآن تحوّلت الأنظار للانتصار بالرّقص والغناء.
- حتى في هذه يتآمرون! المهم، ستسألني ما الذي جعل (واثقًا) يصنعني في خياله؟
= بالتأكيد، هذا ما يحيّرني، لا سيما وأنّني قرأت مذكّراته الغريبة ولم أجد رابطًا بينك وبينه، أو علاقة مسبقة.
- الجميع يا صديقي يفعل هذا ولكن بنسب متفاوتة فالشّعوب المسحوقةِ بشكلٍ عام تحترف الانتظار، وتعقد الآمال على (القادم) فإن غنِموا أنفسهَم وحريتَهم طرحوه من خيالِهم وحديثهم.
لم أصدّقه رغم أنّني سمعت الحوار الذي دار بين صديقي ومهران خلسةً من بدايته، لم أصدّقه فاندفعت بجسدٍ لم يعرفِ الرّاحة والنّوم منذ أيام لداخل تلك العيادةِ البغيضة؛ وجثوت على ركبتيّ أمامه راجيًا أن يقول لي الحقيقة، وأن يصارحني بكلِّ شيء، لكنّه قابل حزني وحيرتي بابتسامةٍ غريبة جعلته يتحول فجأةً لشابٍ أبيض

وسيم تحمل نبراته الهادئة موجات من الرّاحةِ والسّكون.
أمسكتُ رأسَه ورحت أتفحصُ ملامَحه ومعالمه التي أحفظها عن ظهر قلب: لقد تغيّر شكلهُ فجأةً، تحوّل وجهه وجسده بلا منطقيّة لشيء آخر. تحوّلَ من بطينٍ قصيرٍ أصلعٍ لرجلٍ آخر... أردتُ أن أضحك فلم أستطع، وقفت فواجهتني مرآة معلقة بجانبي عكست صورةَ وجهي المتعب، وقد ظهر من خلفه حرفُ (دال) يلتصق به بعد نقطتين اسم مهران. لكنّها عكست صورةَ رجلٍ آخر لا يشبهني من خلالي.
بدأتُ أتناقص وأتكوّر بشكلٍ سريع، بدأ شعري بالتّساقط، وظهرت البثور سريعًا على وجهي؛ تزامنًا مع تغيّرٍ غريب طرأ على نبرةٍ صوتي بعد أن صحت بها أو بي: من هذا؟!
تلمَّستُ سطح المرآة بدهشةٍ وتردّد. استطعت الضّحك هذه المرّة بكل ما أوتيت من حزن.
نزلتُ الدّرج مسرعًا وقطعتُ الشّارع إلى حيث لا أدري.
قادتني قدماي لخمَّارةٍ صديقٍ لا أعرفه ولم ألتقِ به يومًا، وقبل أن أدخلها شعرتُ أن أحدًا ما يلاحقني .

الرّابح

لستُ ذكيًّا كما وصفتني تلك الدّجاجةُ الحسناء صباحَ هذا اليوم؛ لكنّ الصّدفةَ وحدها من جعلتني أنتصرُ على الدّيك الأبيض عبر نزالٍ سريع في لعبة الشّطرنج.

خافَني فتخلَّى عن الدّجاجات مجروحَ الكبرياء، راحلًا عن وطنه، تاركًا مملكته لمن يستحقها، فالخسارةُ على رقعةِ الشّطرنج هي ذاتها الخسارة في المعركة، مما أتاحَ لي امتلاكَ جميع الدّجاجات اللائي اعترفن بأنّ لونَ جسدي وعضلاتي وشبابي انعكسَ بوضوح على جمال عقلي.

لم أكن أجرؤ على التّفكير والحلم بمضاجعة الدّجاجة الحسناء قط، فكيف وقد أصبحت هذه حقيقة لا مفرَّ منها؟! لذلكَ سرعان ما وطئتُ الدّجاجات مرّة مرّة باستثنائها طبعًا، فكلّما ارتعَشت تحت جسدي وتعفَّرت بالرّمل جنَّ جنوني أكثر، وتجدّدت رغبتي أكثر، وافترستها دون رحمة، لأجدني بعد ذلك قد طارحتها الغرامَ مجددًا بنشوةٍ ألذّ من سابقاتها، حتى بدوتُ لا أشبع، وبدت هي لا تمل.

لست لمَّاحًا وهذا ما جعلني أدخل (الصّيدلية) وأتلعثم مرّات قبل أن يبتسم (البُوم) ويتناول شريطًا أزرقَ اللونِ ويناولني إياه. شعرتُ بالخجل فلا زلت بمقتبل شبابي، بينما همسَ بأذني قائلًا: الحملُ ثقيل، لقد سمعتُ أن (الأبيضَ) رحل، وعليكَ الآن أن تكونَ ثورًا لا ديكًا. قالها وضحك بشكل هستيري فاتحًا فمه ليُمكِّنني من رؤيةٍ

أسنانه الصّفراء المقزّزة.
أنجبت لي الحسناء صوصًا أبيض اللونِ، بعد أن أصدرتُ قرارًا يمنع الدّجاجات الأخريات أن يحملن، وكان (اللولب) هو الوزير الوفيّ لتنفيذ هذا القرار بحذافيره.
في البدايةِ شعرتُ أنّ هذا اللون عارضٌ وسيتبدّلُ ريشه قريبًا ليشبهَ والده، لكنّ لونَ عينيه أقلقني؛ فكيف لمولودي ألا تكتسب عيناه لونَ عينيَّ؟
كبُرَ بلونه الأخضر، لكنّني اقتنعتُ برأي (البُوم) الذي ذكر لي يومًا أن الجينات علمٌ غريب، قال: تصوَّر أنّ الدّيك الذي دعا عليه (سعيد بن المسيّب) يومًا بالخرَس، جاءت سلالته من بعده تحمل هذه الآفة، حتّى الدّعاء -يا أخي- انتقلَ عبر الجينات.
قد يكونُ جدّي السّابع، العاشر، الألف بلون أخضر، أو لعلّه اكتسبه من أحد أجداد الحسناء، لكنّه بالتّأكيد سيرثُ عنفوان وبأس والده، لكن لماذا يبدو أصغر حجمًا من أقرانه؟!
هذا الاعوجاج في منقاره ألا يبدو أمرًا غريبًا بعض الشّيء؟!
قالت لي بدلالها وتغنجها اللذيذين وقد دقَّت كتفها بكتفي: لا زالَ صغيرًا، لا تكن عجولًا، صدِّقني سيرث صفات والده عاجلًا أم آجلا. قالتها وتنفست الصّعداء، أو تنهدت بشكلٍ غريب وبدلَ أن تنظر إلى سريري نظرت إلى الحائط وابتسمت.

لستُ ذكيًا لكنّني أفسحتُ المجال لقلبي أن يسترق السّمعَ لهمساتِ زوجاتي سامحًا لها بالتّسللَ بعد ذلك لأعماق روحي، بينما راحت تتزايد الهمسات واللمزات كلّما تظاَهرت بالنّوم، فما زالت بعض الجمل تتوغّل بي حتى حسبتها الموت الذي وُعدنا به.

(هارون الرشيد) و(المخدوع) و(الأدهم) وجملٌ هنا وهناك أتناولها بين الحين والآخر، وفي اللحظة التي شعرتُ بها أنّني بحاجةٍ ماسّة للغضب أصابني هدوءٌ غريب، فلبستُ ثيابي وسرّحتُ شعري وتعطّرت بعد أن أخذت حمّامًا ساخنًا سريعا، وقفزتُ مباشرةً إلى عرشي على الحائط الذي لم أجلس عليه منذ انتصرت.

بدأ التّوتر يسيطر على زوجاتي، فمذ ظفرت بهنّ لم أقفز ولم أتمشّ بخيلاء وبهذه الحماسة، وقد سمعت إحداهنّ تهمس لأخرى: لعلّه يريد الزّواج بأخرى.

بدا الارتياح يعلو قسماتي فصحتُ عدةَ مرّات قبل أن يضحك (البوم) من على شرفته رافعًا فنجانَ قهوته لي محييًّا كما يرفع النّديمُ كأسه.

حطَّ بعدها بدقائق على الحائطِ ببغاءٌ أخضر وأصدر صوتًا غريبًا، فطلبتُ منه أن يتحدّث معي باللغات التي أعرفها: لغة الدّيكة أو اللغة الدّجاجية. ففضّلَ أن يتحدث معي باللغةِ الدّجاجية، وسرعان ما طلبَ منّي أن أنازلهُ نزالَ الشّرفاء

فمملكتي له، وحريمي له، وكلُّ ما ورثته عن آبائي وأجدادي والدّيك الأبيض له.

إنّها الكلمات ذاتها دون زيادةٍ أو نقصان التي تفوهتُ بها أمام الدّيك الأبيض قبل عام من الآن، لكنّني أطرقتُ طويلًا بحيث كنتُ أعلم أنّني أستطيع سحقه تحت نعلي، قبل أن أهشِّمَ جمجمته بيديّ العاريتين، فقد بدا هزيلًا ضعيفًا متجرّدًا من قوّته أمامي إلّا من تلك النّظرة الغبيّة المتحديّة في عينيه، كنتُ عملاقًا (كبغ شو) أمامه بينما بدا مثل ذاك المصارع الذي يصرخ دائمًا بـ(يس) وأحيانًا بـ(نو). كدت أن أسأله عن الفرق بين الـ(يس) هذه والـ(نو) لكنّني اقترحت عليه أن نلعبَ الشّطرنج بينما يحظى الفائز بالزّعامة؛ وسيحصل تلقائيًا على هذه التّركة العظيمة ممتلكًا كلّ شيء... نعم... كلّ شيء.... حتى الحسناء وصغيرها الأخضر.

تركتُ حصانهُ يلتهم الجنديّ الأوّل، ويسحق الفيل، ويدوس القلعة، قبل أن يجبرني على تحريك الوزير ليقتله بدم بارد.

الحركة الأخيرة صاحبت ابتسامة عريضةً منه، وتصفيقًا حارًا من الدّجاجات اللواتي ذهبن يحتفلنَ به، ويتراقصنَ أمامه ناثراتٍ الورد والعطر والرّيش تحت أقدامه.

لم أنظر للخلفِ بعدها وقد غادرت وطني دونما عودة، فالخسارةُ على رقعةِ الشطرنج هي ذاتها الخسارة في المعركة، وها أنا أردد ما ردده

الأبيض بعد هزيمته يومَ سألني مغادرًا: أليسَ من الغريب أن تكونَ الفائز حينَ لا تمتلك حقّ الخسارة، وتكونَ الخاسر حينَ لا يجدي الفوز؟

نفسٌ أخير

السفلةُ من تركوني وحيدًا في هذا البحر، والبحر كعادته يرفضُ صداقةَ الجبناء، يرفضُ صداقة رجلٍ بالَ على نفسهِ مختبئًا، فارًّا من الرصاص الذي انقضَّ _بإشارةٍ سافلةٍ_ على قلوبِ وصدور أفراد السفينة.

لم يتركوا على ظهرها ولو جثة لتؤنسَ وحشتي في هذا المحيط؛ هذا المحيط الذي لا ينتهي ليبرهنَ لي أن ثلثي الكرة الأرضية ماء مالح، وليبرهنَ لي أن ثلثي جوهري جبنٌ فأريّ.

الليلُ والنهار والشمس والقمر، والموج والعواصف ووحدي حيث تكونُ الأسئلة بلا إجابات، وتكونُ الضحكات بلا دوافعَ، وتكونُ الدموعُ الدليلَ الوحيد أنني لا زلتُ على قيد الحياة.

لقد تركَني القرصان اللعين بعد أن قتلَ ورجالُه جميع ركاب السفينة.

لقد نظرَ إلي بعينيه الممطرتين بؤسًا، وخلّى سبيل الهواء إلى رئتي في اللحظةِ التي أهدى لأسماك القرش وجبةً طازجة بعد حفلةِ شواء على جمر البنادق.

لقد تركك وحدك فتعرَّ من هذه الملابس وارفع يديكَ للسماء كما الإنسان الأول واطلب المغفرة، تب إلى رب البحر، ناجِ ربك بما ناجى به (ذو النون)، اسجد على هذه الألواح المملحة بالدم والرصاص، فهذا البحر أوسع من جراحك، وأضيقُ من نفسك، وأعمق من ذنبك.

تعرَّ وعد طفلًا لرحم أمك، فلعلَّ القاتل قرأ الجريمة في عينيك، تلك الجريمة التي كنتَ ترتكبها كلَّما أغمض النهارُ عينيه. وحدك من جاءَ سائحًا، ووحدكَ من جاء مبذرًا للمال، بينما حطَّ الأبرياء رحالَهم عليها هربًا من الطواغيت البشرية... هربًا منك طالما أنك منهم بينما لاحقتَهم عليها بسيفِ نزاوتك.

لقد قتلَ الأبرياءَ وتركَكَ وحيدًا، وكأنَّ القتلةَ لا تقتلُ القتلة، فقد قتلتَ آلافَ الرجال بجشعك، وقتلتَ آلاف النساء تحت وطأة شهوتك، وقتلت آلاف الأجنَّة في بطون أمهاتهن، ولكنه أشجع منك، فقد صوَّب بندقيته بشجاعة وقتلَ بشجاعة، وقذف بهِم للبحر بشجاعة، بينما قتلتَ الآف الأبرياء مختبئا خلفَ قوانين البشر، ونسيتَ وأنساك الشيطان قوانينَ إله البشر .

كنتَ قاتلًا جبانًا كعادتك، مسرفًا بانتهاك المكاتب الحمراء، ويومَ أبحَرت السفينة اصطدت بسنارة المال تلك الشقراء الفقيرة، ولأنك بارعٌ بانتقاء الشقراوات والنبيذ فقد ساومتها لتبتاعها لعدة أيام بثمن بخس.

الوحيدة التي ماتت ضاحكةً هي، وهي الوحيدةُ التي صفعت قائدهم ووصفته بالخنزير، وعندما اختَبَأْتْ أنتَ ظهَرت مدافعةً عن ذلك الشرف الذي اشتريته بمالك، لكنك في قرارة نفسك تدرك أنكَ اشتريت حينها جسدًا بينما لا تشتري كل أموالك شبرًا من تلك

الأنثى النديَّة؛ التي أغتصبها ولوثها قراصنةُ السكناج.
لقد باعتك نفسها بملءِ إرادتها، بينما رفَضتَ أن تبيعَ جسدها مقابل الحياة، فالحياةُ التي تقايضُ بالجسد لا تستحق النزاعَ عليها، وعندما تنتهي يبدو من خسرَها كمن سجلَّ موقفًا في الدقائق الأخيرة، فبدل أن يخسرها خائبًا تخسرهُ خائبةً هي.
إذا كنتَ تدرك أنك تشتري اللحظة، فأنتَ تعادل الدرهم الذي بين يديك، بينما تعادل اللحظة انتفاخ جيوبك، وها أنت تعترف للبحر العدو (أن المال سيدٌ سيء، وخادم مطيع).
لقد تركني لأموتَ على قيد الحياة، وها أنا أترك نفسي لأعيشَ ميتًا، وتدركُ أسماك القرش بأنني لن أقذف بجسدي لأسنانها، فتلهتم الأسماك الصغيرة بدلًا مني، وكأن هذا البحر هو الوطن الذي أنتمي إليه حيث تلتهم الأسماكُ الكبيرةُ الصغيرة، وحيث لا يعتلي القمم سوى الحيتان، ولا يقذف نفسَه للموت طوعًا بين أسنانها سوى البائس والشجاع.
إنه اليوم العاشر، ولا زالت تهيم في عرض البحر، وهو الشهر الثاني ولا زالت اليابسة سرابًا يُتلف البصرَ ليرتد خشبيًّا كهذا العظم الذي تيبَّس من اليأس. حتى اليأس يرفضُ أن يمنحني النقاء الذي منحه للشقراء حين قالت لي : (هي الحاجة من بعد اليأس). الآن فقط أدركتُ أن لحمَ الرقيق يُمنحُ يائسًا للقتلة المحرومين من اليأس

الجميل، والأن أدركتُ فقط أن النفسَ الأخير ينسلُّ بهدوء حين يكون الموقف.

هي الأنفاسُ الأخيرة فليكن قبرك هذا البحر، ولتدعْ الأمواجَ تغسل آثامك وتطهرُك، هي الأنفاس الأخيرة فلتكن رقصة الشهيق والزفير بها على مسرح جمهوره أسنان القرش بدل الديدان التي ستلتهمك متعفنًا، هي الأنفاس الأخيرة فاجعلها تعانق أنفاس تلك الفقيرة، حتى وإن رفَضتَ فاعلم أنك تتساوى في الموت والولادة والبعث والنشور مع جميع من على هذا الكوكب .

وقفتُ للموت عاريًا، فاتحًا ذراعيّ، متحررًا من تلك الهالة الزائفة التي أحاطت بي يومًا، منتظرًا غروبَ الروح خلفَ جبال التيه والوحشة والمحال. ابتسمت لأنني ذلك المخلوق الذي سينام في هدوءٍ أخيرًا بعد ضجيج هذا الكون، أغمضت قلبي وروحي معًا ورحتُ أردد شعرًا قاله (مختار العالم) يومًا بعد داءٍ ألَّم به:

وكأنهُ نفسي الأخير
وكأنها زفراتُ حيّ
تعتبُ الدنيا عليّ
ويعتبُ الماضي عليّ
ويعتبُ الآتي عليّ
وتعتبُ الأزمانُ

والأوقاتُ والساعاتُ
واللحظاتُ فيما بيننا أيضًا عليّ
والآن يعتبُ كلكُم
أو نصفُكم
أو بعضُكم... أيضًا عليّ
وأقيِّدُ الأنفاسَ للنفسِ الأخير
وكأنني.. وكأنَّكم
وكأنَّها ذاتُ المرايا تحتوي
ما قد تكاثف من لهاث العمرِ يجري
والنقاطُ ترادفت تنثالُ تلحقُ بعضها منِّي إليّ
وكأنه نفسي الأخير وكأنهُ نفسي الأخير...

إلى مكانٍ آخر

- هل أطعمتَ الكلب؟

تجاهلَ المحققُ سؤالَها وقد تسمَّرَ الجميع وقوفًا أمامه، بينما أجابها في الحال (نعنوع): بالتأكيد ونامَ هانئَ البالِ قريرَ العين.

عضَّ على شفتيه منزعجًا من مقاطعتها إياه قبلَ أن يقف موزعًا نظراته على وجوه الواقفين. اقتربَ من كبيرهم سائلًا بحدة: من السارق؟

- أقسمُ لك.

* لا تقسم، اعترف وأرح نفسك .

قاطَعتهُ للمرة العاشرة موجهةً كلامها لـ (نعنوع): هل أطعمتَ الكلب؟

وثبَ قائلًا: أطمعته وقلتُ له: (هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ).

نظر المحقق إليها شزَرًا هذه المرة، وقبلَ أن يصرخ بها لإعاقتها التحقيق أسرعَ بِكرُها وهمس في أذنه: (والدتي مصابة بالزهايمر، المعذرة حضرة المحقق).

أومأ برأسهِ مبتسمًا على مضض متقدمًا خطوتين إلى الأمام ،جاذبًا (نعنوع) من قميصه، سائلًا إياهُ بعصبية: وأنت، ألا تريد أن تخبرني من منكم السارق ؟

أراد أن يقول شيئًا، لكنه عوضًا عن ذلك قال: نعم. جوابًا على نداءِ سيدة القصر.

* هل أطعمتَ الكلب؟

- أطعمتهُ حتى بدت

جذب المحقّق (نعنوع) بقوة هذه المرة صارخًا: اعترف.

بكى قائلًا: لستُ أنا، إنهُ (عدنان بيك).

استشاطت غضبًا فصفعته بقوة: أنت كاذب، السارق أحد الخدم حضرة المحقق، لا تصدقه، (فعدنان بيك) إنسانٌ نزيه، وقنوع، ولا يملكُ في الحياة إلّا مزرعتين من الأرانب فقط .

(كاميرا المراقبة) وقفت بصفِّ (نعنوع)، وسيدةُ القصر وقفت بصفِّ (عدنان بيك)، وقد تكذبُ العدسات وما قامت بتسجيلهِ أحيانًا ويصدق الإنسان، وإن كان مصابًا بداء النسيان.

سارَ الجميع مخفورين خلف المحقق، وسارت المركبةُ التي حملتهم إلى مكانٍ آخر، وحينما توقفت كان (نعنوع) آخرَ المتدحرجينَ منها. نظرَ يمنةً ويسرة قبل أن تقع عيناه على رئيس المحققين، وقد بدا غاضبًا وثائرًا كسيدة القصر تمامًا.

صاحَ الرئيس جاذبًا أحدهمَ من ياقته:

- هل أطعمتَ الكلب؟

* وقلت له بعد أن تجشَّأَ وتثاءب وتمرغَ وتكالبَ:

أنتَ السوادُ لمقلةٍ... تبكي عليكَ وناظرُ

من شاء بعدك فليمت... فعليكَ كنت أحاذرُ.

المحتويات

الأسود 5

الحقيقة 11

المشوّه 15

الباب 23

اليد اليسرى 35

إنذار أحمر 41

تصفيق 47

فرخ الباز 53

عابر مقيم 59

جنون 67

السارق 73

القادم 79

الرابح 97

نفس أخير 105

إلى مكان آخر 113